بسم الله الرحمن الرحيم

رحلة أوليا چلبى
إلى الكعبة الشريفة فى شوال سنة ١٠٨١ هـ [١]
وبيان المراحل التى مر بها من الشام الفيحاء
حتى بيت الله الحرام

عُيِّن حسين باشا [٢] أخو سياوش باشا [٣] والى الشام ، قائداً على الحملة المكلفة بحماية قافلة حجاج الشام ، حتى الكعبة المشرفة . لإن أشقياء العُرْبان ، والبدو ، يهاجمون الحجيج كل سنة ، وينهبون متاعهم . ولقد تم توزيع مائتى وسبعين كيسة [٤] على خمسة آلاف ومائة وعشرين رجلاً هم قوة الحامية ، وتسلم القائد ثلاثمائة كيسة أخرى للصرف منها على بقية الأغراض والمهام المنوطة إليه .

وفى اليوم ..... [٥] من شوال ، قام المحفل النبوى الشريف ، بالطواف فى

---

(١) ورد فى بعض النسخ المخطوطة أن الرحلة كانت فى الثانى عشر من المحرم سنة ١٠٨٢ هـ الموافق ٢٧ مايو سنة ١٦٧١ م . وأنه قضى حوالى عشر سنوات فى رحلته إلى مكة ومصر والسودان وبلاد الحبشة . «المترجم»

(٢) حسين باشا : والى الشام ، وقائد حاميتها خلال موسم الحج سنة ١٠٨١ هـ = ١٦٧١ م ، وجاء تعيينه عقب القلاقل التى عمت مكة فى الموسم السابق ، ووضع تحت إمرته ثمانية آلاف جندى ، وكان قائداً شديد المراس .. تعامل بشدة مع البدو والأعراب مما أدى إلى هدوء موسم الحج . وعمل على تحسين العلاقة مع شريف مكة لتهدئة الأوضاع خلال موسم الحج ، «المترجم» .

(٣) سياوش باشا من الآباظية ، تولى الصدارة فى عهد محمد الرابع لمدة مائة يوم فقط . وكان من عتقاء كوپرلى زادة أحمد باشا . وصل إلى رتبه «آغا البلوك» و «قائد المهمان» وتولى ولاية ديار بكر ، وحلب . عاد إلى دار السعادة وتولى الصدارة مرة ثانية سنة ١٠٩٨ هـ=١٦٨٧ م قُتل فى نفس العام بعد أن نهب العصاة منزله وممتلكاته «المترجم» .

(٤) كيسه : Kese = Kise

اصطلاح مالى يدل على الكيس أو الوعاء أو الحافظة التى كانت تُستخدم لحفظ مبلغ معين من النقود الذهبية أو الفضية ، وكانت قيمتها متغيرة حسب العصور . كما استخدم هذا المصطلح للدلالة على العملة و [صره] للدلالة على الذهب . وكانت الكيسه فى عهد محمد الفاتح وبايزيد الثانى تساوى ٣٠ الف آقچه ، أو عشرة آلاف قطعة ذهبية . ثم كانت الكيسه السلطانية المسكوكة فى طرابلس وتونس والجزائر تساوى عشرة آلاف وفى سنة ٩٤٤ هـ = سنة ١٥٣٧م كانت عشرين آلفًا وفى سنة ١٠٧١ هـ = ١٦٦٠ / ١٦٦١ م كانت اربعين الفًا ومنذ سنة ١١٠٠ هـ = ١٦٨٨ م أصبحت قيمتها خمسين الف آقچة . «المترجم»

(٥) ترك المؤلف مخطوطته دون ذكر لتاريخ التحرك بالضبط . وثبت أن التاريخ هو اليوم العشرون من شوال سنة ١٠٨١ هـ. «المترجم»

الشـام [= دمشق] الفيحاء . وقد وصل ألفين من حجاج إيران فى نفس هذا اليوم أيضًا . وتم تحصيل خمس عشرة قطعة ذهبية [1] عن كل حاج إيرانى ؛ مما شكل عونًا ماديًا كبيرًا آنذاك .

وكنت – أنا العبد الحقير إلى ربه – قد قمت بتأمين كافة إحتياجات الرحلة من مأكل ، ومشرب ، واشتريت خمسة جمال ، وقاعودًا ، وفرسًا ، وأربعة هوادج ، وخيمة . كما استأجرت سقاءًا وخمسة عبيد . وجمعت الجميع فى سرادقى .

أخيرًا ، وفى العشرين من شوال سنة إحدى وثمانين وألف من الهجرة النبوية ، خرجنا من الشام ، وسط إحتفال مهيب ، لم تر مثله البلاد من قبل . وسارت القافلة مسافة ساعة نحو القبلة ، وسط رياض ، وبساتين غناء ، وحدائق فيحاء ، حتى وصلت إلى :

قصر كوجوك أحمد باشا : [2]

لقد انتشرت الأخبار ، وتناقلت الأقاويل بين مشايخ الأعراب جميعًا ، وكان مفادها أن ... «إن هذه السنة تختلف عن كافة السنوات السابقة ؛ فعلى رأس القافلة وزير شديد البأس ، صعب المراس لا يرحم قط ، ولن يرحم أبدًا من تُسوّل له نفسه الشغب ، أو يفكر فى العصيان . فأقبلوا جميعًا مع عيالكم وذويكم وقدموا فرائض الطاعة ، واظهار الولاء ... »، .. وما هى إلا سويعات قليلة حتى وفد عدد من مشايخ البدو ورجالاتهم على قصر الوزير كوجوك أحمد باشا ، وتشرفوا بالسلام عليه والمثول بين يديه .

وهنا ؛ فى هذا المَنْزَل قام كتخدا [3] الباشا بتسليم عنان جمل المحمل الشريف إلي

---

(١) عملة ذهبية ضربت فى الدولة العثمانية ، واستقر الرأى على قيمتها فى عهد محمود الثانى (١٢٤٩ هـ / ١٨٣٣ م) على أن تكون ٢٤٠ پارة أو ستة قروش . «المترجم»

(٢) كوجوك أحمد باشا : هو أحمد باشا كوچك من وزراء الدولة العثمانية فى عهد السلطان مراد خان الرابع تولى ولاية سيواس ، والشام ، وكوتاهية ، ثم كُلّف بالتنكيل بعصيان إلياس باشا الذى نشب فى الاناضول ، ولما وفق فى ذلك أنعم عليه السلطان بولاية الشام سنة ١٠٤٢ هـ . وقد نجح فى القضاء على حركات العصيان فى الشام أيضًا .. وأعاد الأمن والأمان ، شارك فى حرب إيران ، ثم عيّن محافظًا على الموصل ، فى سنة ١٠٤٦ هـ ، واستشهد فى الحرب التى دارت ضد الشاه عباس الإيرانى . «المترجم»

(٣) كتخدا = Kethüda = وكيل ، معتمد

معاليه ، وقام هو بدوره بتسليمه إلى أمير الحاج . وتقدم شيخ الشام وقاضيها وسلمه الحجة الشرعية التى تؤيد إمارته للحج هذا العام . وبهذا تمت المراسم المتعلقة بتسيير القافلة .

فى الصباح الباكر ، وعقب صلاة الفجر ، تحركنا ، مارين من بين المزارع وإقطاعات الموظفين . واستمرت القافلة فى سيرها أربع ساعات متواصلة حتى وصلت إلى :

قرية الكِسْوَ:

وهى قرية عربية بيوتها مائتين فقط ، تقع وسط وادى صخرى . بها جامعين ، ومسجداً ، وحماماً عاماً ، وخاناً كبيراً . يقوم آهالى هذه القرية ببيع الكعك الأبيض ، والبوريك والدجاج المشوى ، والحملان ، والزبادى ، والقشدة ، والشعير والتبن إلى الحجاج على الطريق . ومعظم آهاليها جمّالة . ومياه الكِسْوَ عذبة جداً لذيذة المساغ . يشربُ منها أغنياء الشام .

خان الطارخانة:

عبارة عن نُزُلين كبيرين على جانبى الطريق ، يتوقف الحجاج عند عودتهم من الحج هنا فى شهر عاشوراء . وحسب تعليمات أصحاب الوقف ؛ تُعَد ، وتطهى هنا مئات القازانات ، والقدور المليئة بالعاشورة ، وحساء الطرخانة [1] ، وتوزع على جميع الحجاج .

= لقب كان يُطلق على من يقوم مقام الأغنياء أو رجالات الدولة ويعنى « الوكيل ، المعتمد ، مدير الأعمال » .
ثم أصبح لقباً إدارياً يطلق على معاونى الصدر الأعظم . وكانوا فى البداية رجالاً خصوصيين للصدر الأعظم ، ثم أصبحوا من موظفى الدولة . ومَنْ يرتقى منهم أو يقدم خدمات جليلة للدولة كان يطلق عليه « كتخدابك » .
فى عهد السلطان أحمد الثالث أصبح معاوناً للصدر الأعظم فى الأمور الداخلية ومن هنا أصبح له كتبته وقلمه الخاص به .
أماعسكرياً فقد كان يُطلق على كبار ضباط الإنكشارية . وكان أحياناً يسمى « كتخدا القول » أو « كتخدا المعسكر » وكان يعهد إليه بمعاونة آغا الإنكشارية . ولما كانت تنشئتهم فى المعسكرات فقد إزداد نفوذهم فى بعض العصور حتى غطى على نفوذ آغا المعسكر .
وكان لحرس القصر كتخدا يسمى « كتخدا البوابين » يرأس حراس أبواب القصر السلطانى . ويقوم مقام الساعى فيما بين السلطان والصدر الأعظم . لقبه الأوروبيون بلقب مشير القصر ، أو مدير القصر ، أو ناظر القصر . « المترجم »
(١) حساء الطرخانه : « Tarhana » أو الطرخانه ؛ وهو حساء يُصنع من اللبن الحامض ، أ و الزبادى ، وأحياناً يُضاف =

تحركت القافلة من هنا سالكة الطريق الذي تم تعبيده على نفقة والده سلطان [1] ، ومن قبل كانت الجمال ، والبغال تُنْهك ، بل كان بعضها ينفق فى هذا الطريق قبل تعبيده . قطعنا عشرة ساعات على هذا الطريق حتى وصلنا إلى :

قلعة الصنامين:

وهي عبارة عن قلعة صغيرة مربعة الشكل ، على حافة بحيرة ضيقة داخل حدود الشام . مدارها ستمائة خطوة ، بداخلها مساكن لبعض الجند والخفراء العرب ، المعافين من الضرائب . بها مسجدين ، وخانًا ، وحمامًا ، تكثر بها الحبوب ، والتى تُباع على قارعة الطريق ، وفوق برج القلعة المطل على البحيرة ، كان هناك صنمين . وقد أرسل الرسول الكريم جيشًا بقيادة خالد بن الوليد وعمر ابن عبد العزيز قام أولاً بفتح البوصيره ، ثم هذه القلعة . وقد قاما [ﷺ] بتحطيم الصنمين المذكورين وألقيا بحجارتهما فى مياه البحيرة .

ولقد شهد كل من الشيخ على عباس ، والشيخ عبيد الطائفى ؛ الحرب فى هذه القلعة واستشهدا بها ، ودفنا فيها .

بعد ذلك عبرنا أحد الكباري المنخفضة ، وكان به تسع عشرة عينًا ويقع فى اتجاه القبلة التى يمنا وجهنا إليها ، وتابعنا المسير مدة ساعة واحدة ، مررنا خلالها بقرية زراع العامرة الواقعة على جانبى الطريق ، وبها حوالى ستمائة منزلاً ، وبها جامعًا ، وخانًا واحدًا . وقد استمرت القافلة فى سيرها نحو القبلة حتى وصلت إلى :

= إليه حساء اللحم ، ويجفف على شكل حبيبات أو بُدره .. وفى الشتاء يسوى بالغليان ويُصنع منه الحساء الساخن .. ويمكن أن تُضاف إليه بعض المواد الأخرى لرفع قيمته الغذائية . ويقدم منذ القدم للفقراء ، وعابري السبيل من قبل الأوقاف الخيرية . «المترجم»

(١) والده سلطان : لقب كان يُطلق على والدة السلطان المتربع على العرش ، وكانت لها مخصصاتها ، ونفوذها الكبير الذى تكتسبه من نفوذ وقوة إبنها السلطان . وكان منهن صاحبات فضل ، وخير عميم . كن يقمن الجوامع ، ودور الأيتام ، والمطاعم التى تُقدم الطعام للمساكين ، والحمامات ، والأسبلة ، ويقدمن الهدايا القيمة للمقيمين ، والمجاورين فى الحرمين الشريفين . وقد عرفت الحضارة الإسلامية منهن ذوات فضل كبير طوال عصور الحضارة الإسلامية .. وكان لوالدة السلطان سليمان القانونى ، ومحمد الرابع شهرة كبيرة فى مضمار الخير . وتسهيل سبل أداء فريضة الحج . «المترجم» .

قريـة البوصـرة الصغـرى:

قريـة ذات ثلاثـين بيتـًا ، وجامعـًا ، وهـى تبعـد عن البـوصـرة الـتى وصـلهـا النبى ﷺ للتجارة قبـل البعثـة بمسيرة خمس سـاعات . وبها قـبر سـيدنا إلياس بن آخطـوان . جامـعهـا ذو منارتـين وعلى بعد ثنتـا عشر سـاعة منهـا يقـع منزل كتيبـة ؛ .

منزل كتيبـة:

تبـة صغـيرة وسط صحراء حوران . كانت عامرة فى وقت ما ، ولكنهـا أصبحت خرابًا ، تسكنهـا البوم ، والغربان من جراء تعديات الأعراب وهجماتهم المتوالية . بها عين ، مياهها عذبة .

أخذ الحجاج حاجتهم من الماء منهـا . وتتمتع فتيات كتيبة وماجاورها من القرى بجمـال آخـاذ ، وجـاذبيـة لا تُقـاوم ، فكلهـن من ذوات الدلال ، قـمـريات الوجـه ، ملائكيات الطلعة ، وكأنهن حوريات من حورى الجنة . أثَّرن فى بعض الحجاج حتى صرفوا النظر عن استكمـال الحـج ، وكتبوا للقائدين عن رغبتهم هـذه والبقـاء فـى هذه الديار .

ويسـجل التاريخ أن سيدنا آدم قد قام بزراعة ديار حوران هذه ولذلك فهى منطقة خِصبة ، مبـاركة ، كثيرة المحاصيل ؛ من حبة القـمح الواحدة تخرج خمس عشرة سنبلة أو مـا يزيد . ومن كل سنبلة يخرج ما لا يقل عن مائة حبة . ويجود بهـا سبعة أنواع من القـمح ومثلهم من الشعير . قـمحهـا وشعيرها من النوع الجيد الممتلئ ، محصولها يكفِي العالم بأسره لوفرته . ولكن يهاجمهـا كثير من عصاة ، وبدو الموال والتلدان القادمون من الصحراء بآلاف من بعيرهم ، وجِمالهم ، ودوابهم ، يحمِّلونها بالقـمح من الأجـران ، ويفرون بهـا . ولا يجرؤ أىٍ من السكان أن يعترض بأى شكل من الأشكال .

تحركت القـافلة من كتـيبـة عابرة الصـحراء ، وقد مررنـا بالعديد من القـرى التى كانت تُشاهد جوامعها ، وخاناتها . وبعد أن تابعنا المسير مسافة خمس عشرة ساعة وصلنا إلى :

قلعـة مُزَيرب:

شيد هذه القلعة حاتم الطائى فى زمن سيدنا أبى بكرالصديق (ﷺ) . والقلعة عبارة عن مربع داخل منطقة حجرية ، محيطها حوالى ثمانمائة خطوة . ويوجد فى جدران الحصن ثمانين فتحة للرماة . يسكنها أحد السادة الباشوات = القواد ، وفى معيته ثلاثمائة جنديًا ، كما يقطن بها قاضي حوران ، ضواحيها ، وتوابعها حوالى مائتين وسبعين قريةَ ونجعًا . كما يوجد داخل حصون القلعة جامعًا ، وحمامًا صغيرًا ، ومخازن عديدة حيث تُحفظ الأموال الأميرية وبضائع التجار بها .

نهـر الحـور:

ينبع من جبال البوصره ، ويصب فى بحيرة منىَ Mina . أقام قائد الحملة حسين باشا ، وبقية الحجاج خيامهم على الساحل المواجه للنهر ، ومكثنا بهذا الموقع مدة عشرة أيام حتى بداية ذى القعدة حتى تجمع الحجاج من المناطق المجاورة ، وبلغ عدد الخيام المقامة ستمائة وثلاثين خيمة . كماكانت هناك خيام أخرى تخص الحرفيين ، وما شابه ذلك . كما أقيمت هناك دكاكين كثيرة منها ثلاثمائة للخبازين والطباخين والبزازين والقزازين . وكانت مسافة معسكر الجيش يبلغ طولها ثمانية آلاف خطوة .

يفُد أعراب البادية المجاورة إلى هذا السوق كل سنة للبيع والشراء ، فيحققون أرباحًا طائلة . ومعظم مشترياتهم من الأقمشة الغالية النفيسة .

أما القبائل التى كانت توفر الجمال اللازمة للحجاج فكان من أشهرهم :

آل عمر ، آل رشيد ، آل رياح ، آل معان ، آل خرنوش ، آل طورابى ، آل شهاب ، بنى سالم ، بنى إبراهيم ، بنى ابن حنش ، آل حرفوش ، بنى زيد ، بنى صقر ، بنى عطية وعطا ، بنى زهد ، بنى وحيدات ، وكذا بعض من مشايخ نابلوس = نابلس ، وعجلون ، وصفد ، وعكا ، والرملة ، وغزه ، والقدس ،ومشايخ خليل الرحمن . والحاصل فإن مشايخ السبع والسبعين قبيلة التى تنال من الصرة السلطانية ، والإحسانات من خزينة الشام ، هم ، وأتباعهم ومعهم مابين أربعين ، أو خمسين ألفًا من الجمال والبعير مكلفون بخدمة حجاج بيت الله الحرام منذ عهد السلطان سليمان

القانونى . [1] ولكن يجب الحذر التام منهم فهم يسرقون الكحل من العين على حد تعبيرهم .

أخذ الباشا ثلاثة آلاف جملاً عدا حوالى مائتى قطاراً من الجمال والبعير ، وحوالى خمسين قطاراً من البغال ، حيث أن البغال تتحمل مشاق السفر من الشام إلى مكة المكرمة .

حكمة إلاهية :

اليوم الخامس والعشرين من شوال ، فجأة ، وفى وقت الظهيرة ، إنقلب الجو إلى شتاء قارص ؛ حيث هطلت الأمطار بشكل كثيف ، وكان السحاب قد نثرت شعورها وبدأت فى البكاء والنحيب . وتحولت الأمطار إلى سيول أغرقت كل الخيام ، واستمر هطول المطر طوال الليل ، وكانت ليلة ليلاء فى برودتها وغزارة أمطارها ، وتساقط الثلج والبرق والبَرَد كأنه رؤوس العصافير . وقد نفق في هذه الليلة حوالي مائتين جملاً ، ولقى حوالى ثمانين بدوياً حتفهم ، ومزقت الخيول مرابطها وأعنتها من شدة الرياح ، واحتمت فى القرى المجاورة من الهلع والخوف .

وبينما الحجاجُ جميعًا قد فقد كل منهم بعضًا من خيوله ، أو بغاله . فحمداً لله وشكراً ، ففي الصباح وجدت جيادى وبغالى كاملة لم تنقص شيئًا .

وإستمرت الأمطار فى اليوم التالي أيضًا ، بشكل مخيف ، حتى كانت الجياد ، والجمال تغوص فى المياه حتى ركبتيها . أما الحجيج فقد كوَّم كل منهم أمتعته داخل خيمته وجلس فوقها . ولله حكمته فى ذلك . . فإن الزواحف والقوارض التى تعيش تحت سطح الأرض لم تجد لنفسها مفرًا ، فظهرت على سطح الأرض ، ودخلت الخيام ، ولم تترك أى شئ يمكن أن تتغذى عليه ، حتى ملابس الحجاج ومتاعهم ،

---

(١) سليمان القانونى [٩٠٠ - - ٩٧٤ هـ = ١٤٩٥ - ١٥٦٦ م]

أعظم سلاطين بنى عثمان . ابن سليم الأول . اعتلى العرش سنة ٩٢٦ هـ لُقب بالقانونى لعدله وكثرة القوانين التى سنها ، وصلت الدولة العثمانية فى عهده أقصى اتساعها . لقبه الأوروبيون بالعظيم "MagniFique" وصلت فتوحاته إلى المجر ، سنة ٩٣٦ هـ ، وحاصر فينا غربًا . وسَّع فتوحاته فى آسيا فضم كل إيران وبغداد وآذربيجان ووصل خليج البصرة سنة ٩٤١ هـ = ١٥٣٤ م . حول البحر الأبيض والأحمر إلي بحيرات عثمانية تحت قيادة خير الدين بارباروس . له عمارات فى كل العالم الإسلامى . مدة سلطنته ٤٨ سنة . «المترجم»

مزقته شر ممزق . بل وصل الأمر بها أن أكلت أسرجة الحيوانات التى كانت ترقد وذيولها . ويعلم الله أنه لو غفل الشخص بعض الوقت لربما أكلت أذنية أو أنفه أو أطرافه .

وكان أحمد آغا كتخدا القول [1] وسياوش آغا كتخدا بوابى القصر الهمايونى [2] ومعهما بقية الحجاج الذين كانوا قد تخلفوا بعض الوقت فى الشام ، قد داهمتهم الرياح والعواصف والأمطار فى المكان المسمى الصنمين ، فلاقوا من البلاء أشده ، ومن الصعاب ما تشيب من هولها الولدان ، حتى وصلوا إلى الجيش فاستقبلهم الباشا فى سرادقه .

وقد حدثت عاصفة هوجاء ، وريح صرصرعاتية فى ذلك اليوم أيضًا فاقتلعت الخيام ، مزقتها شر ممزق ، تطايرت فى الهواء . ولماكان بعض الرجال قد تشبثوا بالحبال المربوطة فى الأوتاد ، فإن بعض الخيام بقيت معلقة فى الهواء بين عصف الرياح ، وتشبث الرجال ، والأوتاد وسيطرت الدهشة والحيرة على معظم الحجيج فوفدوا على معسكر الباشا وسرادقه للمشاورة ومناقشة الأمر .

مشايخ الحجاج وأصحاب الحاجات فى حضرة الوزير حسين باشا :

مَثَل مشايخ القبائل ، وأصحاب الحاجات بين يدى الوزير حسين باشا وقالوا « ها هو شهر ذى القعدة قد حلَّ ، ومراحلنا أصبحت معدودة ، ولو تخلفنا يومًا واحدًا ، وإذا لم يصل المحمل الشريف إلى عرفات فى موعده ، لقلل ذلك من شأننا ، وحط من قدْرنا أمام عظمة السلطان ، وجموع الأهالى . وها هم حجاج الشام قد تشردوا » .

فأجابهم الوزير حسين باشا على الفور ... « ..الحكم لله وحده.. وما لم يكن

---

(١) القول مصطلح عسكرى استخدم فى الجيش العثمانى . ويطلق على قائده « آغا القول » . وعلى صغار ضباطه « جاوش القول » . وقد اطلق عليهم هذا اللقب تفريقًا لهم عن الإنكشارية وضباط البحرية وضباط الديوان الهمايونى . « المترجم »

(٢) كتخدا بوابى القصر الهمايونى : لقد كان يُطلق على آمرى البوابين والحراس الذين يقومون بالخدمة على أبواب القصر السلطانى . وهذا اللقب مذكور فى دستور الفاتح ص ١١ وكان يقوم بالخدمة فى مجلس السلطان وديوانه . ويقوم مقام الساعى فى حمل المكاتبات المتبادلة بين السلطان والصدر الأعظم . وقد عبر عنه المؤرخون الأوربيون بـ « مشير القصر » أو « ناظر القصر » وكان يُكلف بمهام رسمية على مستوى الإمبراطورية كلها . « المترجم »

الطريق آمنًا .. فلا يكون الحج فرضًا . وإنى لمكلف بإحضار المحمل ، ولست مكلفًا بإحضار الحجيج ؛ هذا من ناحية . ومن ناحية ثانية ، فهناك مسألة نقود الخزانة المصرية ، فإذا وصل المحمل المصرى قبل المحمل الشامى أو تأخر وصوله فإن ذلك يُعد لطمة لسمعة آل عثمان ، ولذلك يجب أن تتكاتف الجهود ، ونلتف حول المحمل ، حتى نختصر المراحل الثلاث في مرحلة واحدة حتى نصل إلى الكعبة المشرفة فى الوقت المناسب ، ولذلك فعلى القادر أن يتحرك أما غير القادر فلا تكليف ولا جناح عليه ...» .

صادق الجميع على ما قاله الباشا . قرأت الفاتحة . وعاد قسم من الحجاج ، وشاء القدير العليم أن يستمر سقوط المطر ، والثلج طوال هذا اليوم ، وهذه الليلة أيضًا ؛ فلجأت معظم الحيوانات إلى القرى المجاورة للإحتماء فيها . وآعادها القرويون إلى آصحابها . وقد أمر الباشا بالإبتهال إلى الله لدفع ذلك البلاء ، بقراءة سورة الإخلاص مائة ألف مرة والصلوات على النبى المصطفى مائتى آلف مرة ، والأنعام الشريفة ألف مرة . وشاء الله أن هدأت السماء ، أطلت الشمس بنورها .. وإن كانت جميع الحيوانات والأمتعة قد غرقت فى بحار الماء ولجج الوحل . وبزغت تباشير شهر ذى القعدة مع إطلالة دفئ الشمس المشرقة .

قيام العبد الحقير بزيارة قبر حضرة سيدنا أيوب فى صحبة بعض الأصدقاء:

قريـــة نـــوا:

أتجهنا نحو القبلة بعد الخروج من مزيرب ، وتابعنا المسير لمدة ثلاث ساعات ، فوصلنا إلى قرية « نـوا » وهى قرية بها ثلاثمائة منزلاً ، وجامعًا واحدًا ، وحوضًا للمياه . ومدفون بها الشيخ سعد الذى كان من أتباع سيدنا أيوب وخدّامه . ويتردد بين أهلها أن الملك ظاهر عندما حاصر عكة ، واستعصى عليه فتحها ، قام الشيخ سعد هذا بتوجيه مزراق حولها ، بادئا بإسم الله وأخذ فى إلقاء مزارقه ورماحه نحو قلعتها ، فكان الجند جميعًا يشاهدون تراشق الرماح ، والمزارق فى جدران القلعة حتى هدّمتها ، فشد ذلك من إذرهم ، وألهب حماسهم ، وتم فتح القلعة . ومكانه معروف حتى الآن . وهكذا يكون سلطان أولياء الله الصالحين ، ومن هنا قطعنا مسيرة ساعتين نحو القبلة حتى وصلنا إلى :

قريـــة مـزار سـيدنا أيـوب:

عاش النبى أيوب مائة وثلاثين عامًا يعتصره الألم ، ولم يتأوه مرة واحدة . وكانت زوجته هى « رحيمة » ابنة « أفرايم ابن يوسف » [١] . ومزاره فى قرية « جوَان » . ومازال قائمًا حتى يومنا الحاضر . ولو ابتلي انسان بأي مرض جلدى واغتسل فى نبع النبى أيوب الواقع فى قرية « سعدون » فإنه يعافى بعون الله وتلتئم كل جروحه .

فى الصباح الباكر ، وفد مشايخ العرب على الباشا ، وأخبروه قائلين : [يا معالى الوزير .. خذ معك ما يلزمك من الظهيرة والمؤن فقط ، وما تبقى سوف نلحق بكم به فى « معَن » أو « المدينة » . تحركوا عندما تسكن العاصفة] ، . كماجاء تركمان مرعش [١] وعينتاب [٢] وقالوا .. [ياصاحب العزة والدولة .. لقد تجولنا في النواحي المحيطة بنا ، وهناك مكان أخضر تفوح منه رائحة العشب ويقع على نفس طريقنا .. فلوشئتم فانتقلوا إلى هنالك وإن شاء الله سيزداد الجو تحسنًا وجمالاً ..] .

على الفور ، أصدر الباشا أوامره إلى جميع الحجاج الذين جمعوا حوالى سبعة آلاف جمل ، وتحركوا . وفى خضم الوحل ، وآلاف المشاكل ، والبلايا ، قطعنا المسافة – التى كان من الممكن قطعها في ساعة واحدة – في أربع ساعات . وقد نفق كثير من الجمال فى الوحل ، كما بقى فيه عدد آخر ؛ لم تكن جمال الشام لتتحمل هذا الوحل قط . بل إن جمال التركمان الرومية هى التى تحملته وتغلبت عليه وكذا جمال العجم ؛ ذات الطبيعة الطاووسية ، قد نجحت هى الأخرى فى نقل متاعنا .

---

(١) أفرايم بن يوسف : = أفرام بن يوسف

ولد فى نصيبين سنة ٣٠٦ وتوفي فى أدسه = اورفه سنة ٣٧٣ م رحل دين سرياني ، وكاتب – قبض عليه من قبل بطارقة مدينة نُصيبين لنشاطه الديني . سنة ٣٦٣م . ثم هاجر إلى أدسه = اورفه ، وأسس بها مدرستها . ترجمت أعماله فيما بعد إلى اللغات ؛ اليونانية ، واللاتينية ، والعربية ، والأرمنية ، والسلافية وقام بابحاث عن الكتاب المقدس، وأصبح معلمًا بالكنيسة ، ومعروفًا فيما بين السريان كزعيم دينى . خاطب المشاعر بأعماله التى ألفها ، وتُعتبر أشعاره من أجمل النماذج فى الشعر العالمى . (المترجم) .

انظر .Büy¨k Lügat Ansik. Cclt 4, s. 88 -

(٢) مرعش : من أشهر مدن الأناضول ، ولها مكانة كبيرة فى تاريخ التركمان والأكراد وبها العديد من الآثار الإسلامية التى تعود إلى عصور مختلفة . « المترجم »

(٣) عينتاب : من مدن الأناضول الشهيرة ، وقد منحها مجلس الأمة التركي الكبير لقب غازى فاصبح يُطلق عليها غازى عينتاب . وتُعتبر المدينة السابعة حاليًا من ناحية التعداد فى تركيا المعاصرة .. وهى غنية بآثارها التى تعود إلى مختلف العصور ، . « المترجم »

أعدنا الجمال مرة أخرى إلي مكان المعسكر لإحضار ماتبقى من الحجاج والأمتعة . وأنا العبد الحقير قد ترددت بين مكان المعسكر ، والمنْزَل الجديد مرتين لنقل وإحضار حاجياتنا .

مرحلة[1] قرية طورنا :

قرية عربية بها جامع ، ومائتى منزلاً ، حط كل الحجاج رحالهم على هذه المراعى الخضراء ، وأشرقت الشمس إشراقة أضاءت وجوه الجميع . وجاء جمع من المشايخ الذين كانوا قد تواروا بجمالهم ، وقدَّموا أولاً إلى عثمان ، بك بن دمير باشا أمين بيت المؤن ألف جمل من أجل المؤن السلطانية ، وإلى الباشا قائد القافلة ثلاثة آلاف جملاً ، وإلى أمين الصرة[2] محمود آغا الطوب قاپى مائة جملاً .

وغرب قرية الطورنا هذه يوجد قبر النبى دانيال عليه السلام على رأس رابية خضراء . وصل جميع الحجاج . وذبحوا الذبائح ، وصلوا ، وحمدوا الله على النسمات الدافئة التى بدأت تهب من ناحية القبلة :

«وجدَ العالمُ حياةً جديدة .... وتوهبَ الأرواحَ لحظة بلحظه ..»

أُطلقت المدفعية على الفور ، عُيِّن خارموج باشا على رأس مفرزة المقدمة وإثنين من الـ « شام چورباجى »[3] وإثنين من الـ « باشا آغاسى » وخمسمائة من المقاتلين الأفذاذ

---

(١) المرحلة : المرحلة أو المنزل أو الإستراحة أو الموقف أو القوناق ؛ كلها مصطلحات تدل على المسافة التى كانت تقطعها قوافل الحج ، أو التجارة ، والمرحلة مسيرة يوم واحد بالجمال أى مسافة سبعة وعشرين ميلاً تقريبًا . «المترجم»

(٢) أمين الصرة = « صرة امينى » اصطلاح إدارى يُطلق على الموظف الذى تسند إليه عهدة ومهمة توصيل الصرة الهمايونية إلى الحرمين الشريفين كل سنة . وكان يُعين لهذه المهمة إحدى الشخصيات العلمية أو المدنية اوالعسكرية التي تتصف بالتدين والإستقامة . وكان يبدأ رحلته وسط احتفالات آلاى الصرة . وبعد أن يقوم بتوزيع الصرة على أربابها وأداء فريضة الحج كان يعود إلى استانبول.

ومع ان هذه المهمة تعتبر مهمة شرفية إلا ان امين الصرة كان مضطرا فى كثير من الاحيان للصرف من ممتلكاته الخاصة مبالغ كبيرة وذلك لقلة المخصصات . ومن هنا كانت تسند هذه المهمة إلى بعض الأغنياء فى كثير من الأحيان ، وكان كثير من العثمانين فى عصور الإزدهار لا يتوانون او يتهيبون من صرف المبالغ الضخمة فى هذا الصدد . ولكن فى أواخر القرن الثانى عشر = الثامن عشر الميلادى ، وبسبب الأوضاع المالية المتردية للدولة العثمانية ، بدأ الكثيرون يرفضون القيام بهذه المهمة متعللين بكثير من الأسباب الواهية لإعفاءهم من هذه المهمة . ولكن فى عهد السلطان سليم الثالث وخاصة فى سنة ١٢٠٧ هـ = ١٧٩٢ / ١٧٩٣ م تم علاوة مبلغ ١٥٠ الف قرشا ذهبيًا على مخصصات هذه الوظيفة مما أعاد إليها رونقها واصبحت مطلبًا لكثير من رجالات الدولة . « معجم المصطلحات التاريخية جـ٣ ص ٢٨٣ » . «المترجم»

(٣) چـورباجـى = Çorbaci اصطلاح عسكرى عثمانى يُطلق على ضباط البلوك الذين يكوِّنون جنود المشاه فى =

الذين يتصفون بالشجاعة فى المؤخرة . وجميع الحجاج فى الوسط . وبعد مهرجان الطلقات النارية التى أطلقتها المدافع ، والبنادق ، عُزِفت نوبة التحرك ، كما عزفت الفرقة الموسيقية الشاهانية المهتر [1] ثمان مرات ، وبعدها تقدمنا وبدأ الموكب فى المسير . وقد كان بالإمكان زيارة حاتم الطائى فى نفس المكان فإن مدينة البُصْرَه تقع بالقرب من هنا ؛ ضواحيها كثيرة القرى تقطعها القوافل فى إثنتى عشرة ساعة .

مرحلة قلعة مازراق :

قلعة بناها سلطان بنى هلال [2] ، وهى على شكل مربع ، وسط الصحراء لا يوجد بها أحد . تقع فى ناحية الكرك ، فى آراضى القدس . الكل يتناول طعامه هنا على شاطئ نهر الزرقاء دون أن يُنْزِل أمتعته بالقرب منها ؛ وادى خصب ، وفير المياه . وبعد أن استراحت القافلة قليلاً ، تحرك الموكب ، قاطعًا مسافة ثلاثة عشر ساعة فى هواء جميل ، ووسط طرق جبلية ، وصخريه .

= الجيش لعثمانى . وعلى ضباط معسكر الجند الجدد ، المكون من واحد وثلاثين بلوكًا ، والذين كانوا بمثابة مخرجًا لمعسكر القاپى قولى . وهو موازٍ للبلوك باشى أى رئيس البلوك . وكانوا يُلقبون أحيانًا بـ « صوباشى » ويطلق على أقدمهم فى الجماعات « بایاباشى » قائد المشاه . وكانت لهم خيولهم الخاصة بهم . وكانوا يرتدون جبة طويلة الأكمام من المخمل . وقفطان رقيق وشلوار قرمزى وپاپوچ نعل اصفر فى أقدامهم .

أما القادة الذين يلقبون بـ « چورباجى كچه سى » فقد كانوا يرتدون فروًا مُقصَّبًا . وهم الذين يقومون بتنفيذ الجزاءات التى تُوقع على الجند ، وينظمون أمورهم ؛ أى انهم كانوا بمثابة البوليس الحربى فى العصرالحديث . غُيِّر هذا اللقب إلى « أورطة آغاسى » بعد الغاء الإنكشارية . « المترجم »

(١) مِهْتَرْ : إصطلاح موسيقى يعنى الموسيقار الذى يقوم بغرف النوبة أمام باب أحد رجالات الدولة العظام أو القواد الكبار . وتُجمع على مهتران اى مجموعة الموسيقيين الذين يعزفون السلام الوطنى أو السلطانى أو النوبات المختلفة فى الجيش . وكانوا يقومون بالعزف على الطبل ، والزمر ، ويطوفون الأحياء تبشيرًا بسير المحمل إلى الحجاز . ويجمعون الهبات والتبرعات لهذا الغرض .

ومنهم « مهتران علم » أي الفرقة الموسيقية المنوط بها عزف سلام العلم ، أو السلام الوطنى فى وقت الحرب . و« مهتران طبل وعلم » وهى الفرقة الموسيقية المكلفة بعزف الموسيقى فى القصر السلطانى ، وفى حضرة السلطان وقائدها يسمى « مهترباشى » . أما الفرقة الخاصة بالسلطان فكانت تسمى « مهترخانة خاقانى » أو « مهترخانة همايون » ويقول هامر جـ١ ص ٣١٣ إنها فرقة الشرف التى تعزف أمام الوزراء ، والقواد وقت الحرب ، وتُذكرهم طبولها باوقات الصلاة أيضا عند الجهاد . ويبين أدوات المهترخانة كالتالى : ١٦ زورنا ، ١٦ طبل ، ١١ مزمار ، ٨ نقارة ٧ أجراس = « صاجات » و ٤ أوستان . وكان عددهم ٧٢ فردًا أما إذا إشترك السلطان بنفسه فى الحرب فيتضاعف هذا العدد . وقد أُلغى نظام المهترخانه مع الغاء معسكرات الإنكشارية سنة ١٨٢٦ م = ١٢٤١ هـ واستبدل به نظام موسيقات الباندو . « المترجم »

(٢) بنو هلال : قبيلة عربية يرجع نسبها حتى سيدنا اسماعيل ؛ ويبدأ بهلال بن عامر بن شعشعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن قيس عيلان . كانوا يعبدون الأوتاد فى الجاهلية . وكانوا يعيشون فى نجد واليمن . ولهم آبار ومزارع نخيل كثيرة بالقرب من البصرة . وهم الذين كانوا يقيمون سوق عكاظ الشهير . وهم الذين زحفوا إلى شمال أفريقيا . . وتتحدث عنهم سيرة بنى هلال . ولهم أهمية كبيرة فى تاريخ الحضارة ، والثقافة ، واللغة العربية بالذات ، « المترجم »

قلعة عين الزرقاء:

شيدها نور الدين شهيد [1] ، وهى قلعة مربعة الشكل ، تقع فوق صخرة مدببة ، لم يعد بقطنها أحد . تقع ناحية الكرك ، ضمن أراضى القدس . والكل تناول طعامه على شاطئ نهر الزرقاء دون أن تحط الرحال . ومُلئت مئات الجرار والقِرَب بالماء . وقد كانت هذه المياه سابقًا تتدفق إلى الصحراء ، وعندَما وفد الرسول الأكرم ﷺ مع قافلة مكة المكرمة قاصدًا البُصْرَه [2] ، فأشار ﷺ ، إلى هذه المياه ، فشاءت قدرة القادر ، أن تتجه هذه المياه الضائعة إلى أعماق القلعة ، وتحولت رُويدًا رُويدًا مع الزمن إلى بحيرة . ويُشاع أن كثيرًا من سباع صحراء بغداد تفد إلى هذه البقاع . ولكنى لم أر أي منها . وقد مررنا من هذه المناطق على عجل .

منزل تبركه:

منزل به خان خرِب ، مطل على رابية سهلة . وبينما كان التفكير متجه إلى الإستراحة هنا فى هذا الموقع بعض الوقت دون أن حَط الرحال أيضًا ، فإذا بالمطر

---

(١) نور الدين شهيد : هو نور الدين زنكى ، ونور الدين محمود زنكى ، الملك العادل أبو القاسم بن عماد الدين زنكى بن أقسنقر ؛ الإبن الثانى لعماد الدين زنكى مؤسس دولة الآتابكة فى نواحى الموصل والجزيرة . ولد سنة ٥١١ هـ / توفى والده سنة ٥٤١ هـ . فتولى اخوه سيف الدين عرش الموصل ، وقام هو بتخليص حلب من بنى الارقط ، وأسس بها مُلكًا ، وكون دولةً بعد ضم حماة ، وحلب ، وبعلبك ، ودمشق . واستطاع أن يستخلص مدنًا وبلادًا كثيرةً من الصليبيين منها مرعش ، والرقة ، وبانياس . كان نور الدين ملكًا ، شجاعًا ، وعادلاً ، محبًا للعلم ، والعلماء ، والأدب، والأدباء ؛ صاحب خيرات كثيرة ، مما جعل – حتى – اعداءه يبهرون بعدله ، ومنجزاته . أنشأ الكثير من المدارس والجوامع والمبرات فى كل من حلب ، وحماة ، وحمص ، ودمشق ، وبعلبك . كما أمر بإنشاء مستشفى كبير فى دمشق ، أوقف عليه ، أوقافًا كثيرةً ، وجلب إليها أشهر أطباء عصره . سار على منواله صلاح الدين الأيوبى فى مصر . توفى نور الدين سنة ٥٦٩ هـ . بعد أن قضى فى الحكم ثمان وعشرين سنة اتسمت بالعدل وجلائل الأعمال . انظر : « شمس الدين سامى ، قاموس الأعلام جـ ٦ ص ٤٦٠٧ » . وهو الذى أمر ببناء « دار العدل » ، وعيَّن فيها محلاً للملك ومحلات لقضاة المذاهب الأربعة ، والمفتى ، لتجرى فيها أحكام الشرع . انظر : تاريخ جودت ، جـ١ بيروت سنة ١٣٠٨ هـ ص ٥١ .

(٢) البُصْرَه : Busra إحدى القرى السورية تقع فى أحضان جبل الدروز من الناحية الغربية ، بها آثار يونانية قديمة ، وحمامات ، وأسبلة تعود إلى القرن الثانى عشر الميلادى ، السادس الهجري ، كما أن بها قلعة ، وجامعًا يعودان إلى نفس القرن . . كانت مركزًا للولاية العربية فى العصر الرومانى ، وكانت تمر بها طرق القوافل . دخلها الإسلام بعد سنة ٦٣٤ ، إلا أنها خُرِّبت خلال الحروب التركية – الصليبية . (انظر : ميدان لاروس مادة Busra) « المترجم » .

ينهمر دون أي مقدمات ، فدُهش الحجاج لذلك . وبدأوا التفكير فى الكيفية التى يتمكنون بها من عبور صحراء « بلقاء » فالكثيرين منهم يعرف أن العديد من الكروانات = القوافل قد غرقت فى مياه تلك الصحراء . فمعروف أن بلقاء هذه منطقة وحلية تكثر بها المستنقعات ورمالها متحركة .

أخيراً ، تجمع الرجال فى حضرة الباشا ، وتشاوروا فى الأمر ، فأصدر الباشا أوامره متسائلاً .. « أين رجال الشام .. ؟ أين الدليل إبراهيم چلبى ؟ فلقد عبر هذه المناطق عشرات المرات ، فلتخرج مفرزة من الفرسان لإستطلاع الطريق .

فتقدم شِعار اوغلى والباششاويش والجاويش حب الزمان وبعض أصحاب الخبرة . وبعد ساعة عادوا قائلين .. « يا معالى الباشا هناك طريق رملى فى الناحية الشمالية ، ولكننا سنتأخر يومين فى هذا الطريق .. » . فغضب الباشا وزمجر قائلاً .. « إننا ونحن على هذه الحالة قد تأخرنا .. وأنتم تودون تأخيرنا يومين آخرين .. ! سأطيح برقابكم جميعًا فداءً لسمعة السلطان .. » . فقال بعض الشوام :

« .. إن صحراء بلقاء هذه تقطعها القوافل بمسيرة ثلاث ساعات ، ونتعشم إن شاء الله ألا تكون الأمطار قد أثرت فيها ، فلنتحرك فوراً .

وعلى الفور أُطلقت نوبات الإستعداد ، وتحرك الموكب ، ونزلنا فى صحراء منبسطة . ولكن استمرار هطول المطر بغزارة حال دون أن نخطو خطوة أخرى إلى الأمام .

مرحلة بوغاز بلقاء :

استمر هطول المطر حتى منتصف الليل ، وصارت الخيام ، والخيول ، والجمال وسط بركة من المياه . وشاء الله أن تخف الأمطار قليلاً بعد منتصف الليل . وبينما القافلة تستعد للتحرك من جديد ، فإذا بالسماء تعصف ، والثلوج تهطل ، ويخيم الظلام على المكان ، ويطمس معالمه . مما أدى إلى نُفوق بعض الحيوانات ، وإختفاء بعض الأفراد . وعلى الفور نادى المنادون بألا يتحرك أحد من مكانه ، وفى النهاية ، وما أن أصبح الصباح حتى رأينا الصحراء وقد تحولت إلي بحر متلاطم الأمواج ، فأمسك كل حاج بزمام جمله ، أو مقودة فرسه ، وأخذ يخوض وسط المياه ، سائراً على قدميه ،

شاقًا طريقه بصعوبة جامة بين الأوحال ، متجها نحو خان قديم على الجانب الأيسر من الصحراء .

خان عين الطير:

وهو من أعمال خليفة بنى هلال . سُمىَ بهذا الإسم لتشابه أحجاره مع عين الطير. ولقد كانت هذه المنطقة قديمًا مدينة كبيرة . ولقد اكتشفتا أن القافلة فقدت العديد من حيواناتها عند عبور هذه المنطقة إما غرقًا ، أو نفوقًا من شدة البرد . والصقيع وساءت حالة النسوة ، والأطفال ، بسبب ترجلهم ، وخوضهم ، وسط المياه وكأنما الحالة تذكر بيوم المحشر . ولكن الحجاج التركمان والعجم قد عبروا المستنقع بدون أدنى تردد ، وكانوا أكثر جرأة ، فى خوض غمار المياه ، وأكثر تصرفًا ، إذ كانوا يضعون بعض الأكلمة تحت أقدام الجمال التى تغوص فى الأوحال حتى يساعدونها على الخروج ومداومة السير .

منزل صحراء بلقاء:

عبارة عن منطقة رملية بها بعض الكلأ الأخضر . وكان المطر ما يزال منهمرًا . ولم يكن حسين باشا يكف عن الطواف ، والدوران ممتطيًا صهوة جواده حتى يطمئن على الجميع ، ويجمع الجمال والحجاج الذين تفرقوا ، ويجمع لهم أمتعتهم ، وأموالهم ، فنال دعاء الجميع . وأمر بإعداد عشرة قدور من الحساء الساخن ، وتم توزيعها على الحجيج ، حيث كانت بوادر أزمة فى المواد الغذائية بدأت تظهر بين أعضاء القافلة ، ووصل ثمن الأوُقة من البقسماط ثلاث قطع ذهبية . وفقد الحجاج أملهم فى الوصول إلي عرفات فى الموعد المناسب . وهبت هنا أيضًا عاصفة هوجاء ، لم تُبق على شئ ، حيث اقتلعت الخيام بأوتادها ، وبعثرت المؤن ، والأحمال ، من أماكنها . فأمر الباشا أن يتوسل الحجاج ثانيًا بقراءة الأنعام الشريفة ، والإخلاص . فهدأت الأمطار قبيل المساء ، ولكن اشتد البرد القارس ، لدرجة أن أحد عشر رجلاً وما يزيد عن مائتى جمل ، وفرس ، وبغل ، قد تجمدت ، كما تجمدت المياه فى القرب ، وغطى الصقيع ، والثلوج وجه الصحراء . ولما رأى الحجاج فى الصباح ؛ أنه لم يعد هناك وحل على الطريق ، فتحركت القافلة على

الفور ، واستمرت فى سيرها ، أربعة عشر ساعة ، حتى دخلنا فى ممر ضيق ومضيق مهول .

قلعـــة الفطـــران:

تخضع لسيطرة صوباشى [١] قلعة الكرك من أعمال القدس . أهلها غلاظ ، عصاة حتى أنه ما أن بدت قلعة القطران للعيان حتى وجدنا أنفسنا بين أربعين ، أو خمسين فارسًا بدويًا ، وقد سيروا خيولهم علينا ، ووجهوا سهامهم ، ومزارقهم نحونا . وعلى الفور قام فرساننا بالرد عليهم ، وأمطروهم بوابل من الرصاص ، فقتل إثنان منهم وفر الباقون . ودخلنا نحن القلعة ، وقد كانت على شكل مربع ، قلعة صغيرة محيطها ثلثمائة خطوة ، بداخلها سبع منازل ومخازن . بها سبعون رجلاً من رجال الحصار = جنود القلاع . ومعظمهم يجلبون مؤنهم ، وموادهم الغذائية من الكرك ، كما يحضرون الظهيرة ؛ ويبيعونها هنا ، بأسعار عالية .

تحرك العبد الفقير من هناك مع بعض من جند القلعة وحوالى مائتى من المسلحين بالبنادق ، وأتجهنا نحو الغرب متخطين عقبات ، وسالكين طرقًا حجرية ، حتى وصلنا قلعة الكرك بعد مسيرة ساعتين .

قلعـــة الـــكرك:

تعد من أهم سناجق ولاية القدس ، وهى ملتزمية [٢] ضواحيها حوالى سبعين قرية . شيدها العباسيون . وقد سُلمت القلعة إلى السلطان سليم [٣] سنة ٩٢٢هـ =

---

(١) صوباشى : Subasi = امين البلدية = ومدير الأمن ؛ اصطلاح ادارى عثمانى كان يُطلق على كبار موظفى الإدارة فى المراكز والقصبات فى العهد العثمانى . وكانت أعمالهم تشبه أعمال الضبطية الإدارية فى عصرنا الحالى . وكان عثمان هان – مؤسس الدولة العثمانية – هو أول من أسند هذا المنصب إلي اخيه « كوندوز بك » . كما أسند أعمال الحكومة إلى إبنه أورخان بك ، وذلك بعد فتح قره حصار . [عاشق باشازادة مارنجى ص ٢٠] كما قام السلطان محمد الفاتح بتعيين « سليمان بك » صوباشيًا على استانبول بعد فتحها ، وفوضه فى امر تعميرها واعمارها . [تاج التواريخ جـ١ ص ٤٤٧] . « المترجم »

(٢) الملتزمية : اصطلاح مالى عثمانى يُطلق على القرية أو القصبة التى تمنح لأجد رجالات الدولة نظير مبلغ معيّن يقدمه إلى الخزينة سنويًا او يدفعه مقدمًا لعدة سنوات ثم يقوم بتحصيله من الأهالى . وكانت هذه الملتزمية تحال إلى من يدفع اكثر . كما يمكن أن يطلق هذا المصطلح على المبلغ المطلوب من الملتزم . « المترجم »

(٣) السلطان سليم الأول : ٨٧٥ / ٩٢٦ هـ = ١٤٧٠ / ١٥٢٦ م . =

١٥١٦ م لها حصن خماسى الشكل ، وقلعة الظاهر بيبرس [١] متينه جداً ، بداخلها مائة وخمسين منزلاً ، وجامعًا ، وخانًا ، وحمامًا . ولها سوقًا صغيراً ، وكانت فى الماضى سجنًا يستخدمه السلاطين المصريون . وبها مزار الشيخ شجاع [٢] . وقد اشترينا . على عَجَلٍ ، بعض المأكولات والمشروبات من هنا ، وما أن لاح لنا أن الحجاج ينسحبون فوجًا فوجًا حتى جُنَّ جنوننا ، وأتينا إلى قلعة القطران فى ساعتين ، فوجدنا أن كل الحجيج قد غادروا المكان ، ولم يبق سوى المؤخرة . فرافقناها ، وقطعنا مسيرة أربع عشرة ساعة حتى وصلنا إلى :

منزل تابوت:

لم تبق أي أطلال من البناء ، وفى هذا المكان يجمع الأعراب منتجاتهم لبيعها إلى الحجيج ، وإذا ما سنحت لهم الفرصة فإنهم ينهبون ما يُتاح لهم من متاع الحجاج ويهربون بها .

حمدا لله . . إذ تحسن الجو ، وعادت البسمة والحيوية إلى وجوه الناس ، ودبت الحركة فى أوصال الدواب . وبينما كان الحجاج مشغولون بملئ جرارهم ، وقربهم من المياه ، هاجم البدو ثلاثة قطارات من البغال والجمال مُطْلقين صيحاتهم ، وولولاتهم

= لقب بـ « ياووز » الفظ . وهو تاسع سلاطين آل عثمان ، فاتح مصر والشام ابن بايزيد خان ، حفيد محمد الفاتح ووالد سليمان القانونى جمع بين السلطة والخلافة . وسّع من حدود الدولة فى آسيا وأفريقيا . شمل خير الدين بارباروس برعايته ، تولى العرش ٩١٨ هـ حاول خلق جنسية عثمانية تشمل كل العناصر الإسلامية التى دخلت حوزة الدولة ليخلق بذلك تكتلاً إسلاميًا يصد الصفويين سنة ١٩٢٠هـ = ١٥١٤ م موقعة چالديران ، ولم يدفعه إلى ذلك إلا رغبته فى كسر شوكة الصفويين لتعاملهم مع البرتغاليين . توفى عن إحدى وخمسين سنة بعد أن قضى فى السلطة ثمان سنوات فقط وثمانية أشهر » .

(١) الظاهر بيبرس : هو الملك الظاهر سيف الدين الصالحى البندقدارى ١٢٢٣ - ١٢٧٧م = ٦٢٠ - ٦٧٦ هـ وهو السلطان الرابع للمماليك البحرية . اختلفت الروايات حول مولده . . وهو قبچاقى فى الأصل ، اختطفه تجار الرقيق هو وأخيه فى الرضاعة وأُحضر إلى سيواس ومنها إلى حلب ثم أخيرًا إلى الشام . نال أخيرًا حريته على يد ملك مصر الأيوبى الملك الصالح نجم الدين . أحبه شعب مصر لسلوكه الطيب تجاه الشعب . كوّن امبراطورية مصرية ، أصبح لها كلمة مسموعة فى العالم الإسلامى . ما زالت آثاره على مستوى العالم العربى والإسلامى ماثلة للعيان . . وخاصة فى القاهرة وحلب والشام والحجاز . . ويعتبر من أهم الحكام الذين أعطوا أهمية قصوى للمنشآت المعمارية ؛ من جوامع ، ومدارس ، ومستشفيات ، وأسبلة . .

كان رجل دولة من الطراز الأول ؛ له بصماته فى ميادين الحرب ، وتشكيلات الجيش ، وادارة امور الدولة . جمع السلطات فى يده لكى يضمن الأمن فى البلاد ، ويحول دون فساد المماليك . « المترجم »

(٢) الشيخ شجاع : هو الشجاعى شاهين الجمالى شيخ خدم المسجد النبوى الشريف حوالى سنة ٨٩٣ هـ . « المترجم »

المعهودة ؛ فأمر الباشا خمسة من حاملي الأعلام الأشداء بتعقبهم بخيولهم ، فلحقوا بهم وتم القبض على ستة منهم .. وقال قائل منهم .. « أيها الباشا .. لا تغفل عيناك وخذ حذرك حتى الصباح ، فإن الأعراب سيهاجمونكم » . فأمر الباشا أن يستعد الركب للتحرك . وبدأ الموكب فى الحركة فى منتصف الليل ، وتم تسليح كل الجنود ، واصطفوا على اليمين وعلى الشمال ، وعُزِفت الموسيقى الهمايونية ثمان دفعات متتاليات حتى اهتزت الجبال ، وصدحت الوديان ، وكان الأعراب فعلاً قد اتخذوا من الجبال والصخور المتوفرة فى منطقة عنزة مكمناً لهم ، وبدوا وكأنهم كالغابة المتناثرة الأشجار ، ثاروا ، وهاجوا؛ وماجوا ؛ وأذ بدوا ولكنهم لم يجرؤوا على الهجوم ؛ ففروا وتابعت القافلة سيرها فى هذه المنطقة مدة تسع عشرة ساعة .

مَنزل عَنزَه:

عبارة عن منطقة صحراوية واسعة ، ليس بها قرى أو ما يشابهها ، وهنا وفد بعض المشايخ من أعراب عَنَزَه [1] وزهد والوحيدات طالبين الصرة . فقال لهم الباشا : « إن الصرة تقدم لكم مقابل الخدمات التى تقدمونها إلى الحجاج حسب قانون السلطان سليمان خان القانونى ، ولن أقدم هللة واحدة إلى هؤلاء الأعراب الذين اصطفوا على قمم الجبال ، واستعراضاً للقوة ، وعددهم عشرة ، أو خمس عشرة ألفاً ..

قال الشيوخ : « إننا سنرسل هدية الباشا ، حتى وإن لم نحضر بأنفسنا .. » . وأرسلوا بالفعل ثلاثة خيول كُهَيْلانية إلى الباشا الذى تقبلها ولكنه أعلن مصمماً : « إن شاء الله .. عند عودتنا بسلامة الله ورعايته سأجد رؤوس العصاة وحتى ولو كانوا فى أعماق البحر ، المهم هو أن تسيطروا على المنطقة وتقبضوا على كل من وقف ضدنا أو خرج علينا .. » .

---

(١) عنزه : من أشهر القبائل العربية ، وأقواها . كانت تعيش فى جزيرة العرب ، وبادية الشام . وكانوا يتجولون ما بين الجزيرة والموصل والزور وشمال بادية الشام هذه . كانوا فى صراع دائم مع قبائل شمر : موطنهم الأصلى ديار نجد ، كما كانوا يتواجدون فى منطقة الحجاز ، ناحية خيبر . سكنوا اليمامة قبل الإسلام . كانوا يقضون الصيف ناحية الشام وحلب ، أما فى الشتاء فكانوا يعودون إلى جوف الصحراء ؛ وكثيراً ما كانوا يصلون إلى العراق . ويعيشون – فى ذلك الوقت – على الرعي ، وتجارة القطعان .. كانوا يتلقون العطايا من الصرة السلطانية ؛ سواء فى العصر المملوكى ، أو العثمانى (أنظر : قاموس الأعلام ، شمس الدين سامى جـ٥) « المترجم » .

ثم صدحت الأبواق عاليًا وتابعت القافلة سيرها إحدى عشرة ساعة بين الرمال ، والصخور حتى وصلنا إلى :

قلعة معان - مِعْن

قلعة صغيرة على شكل مربع ، بدون خندق ، محيطها ثلاثمائة خطوة . كانت فى الماضى تحت سيطرة انكشارية الشام [1] ، ثم تمكن الأعراب من قتل محافظها ، والإستيلاء عليها . .

---

(١) إنكشارية الشام : الإنكشارية ؛ لغويًا يعنى جرى ، ويطلق عليهم الأوروبيون Janiser . أما عسكريا ؛ فهو اسم يُطلق على فرق المشاه النظاميين التى كونها الترك العثمانيون فى القرن الرابع عشر الميلادى = الثامن الهجرى ، وأصبحت اكبر قوة عسكرية عندهم ، وقد مكنتهم من الفتوح الواسعة التى قاموا بها .

ويُطلق عليهم أحيانًا اسم الـ « قاپى قولى » أى عبيد الباب السلطاني ، أو الرقيق السلطانى نظرًا لإرتباطهم بالسلطان شخصيًا . وكانت هذه التشكيلات العسكرية موجودة عند السلاجقة ، والمماليك . . ولكن العثمانيون أدخلوا عليها الكثير من التنظيم والانضباط ، خاصة فى عهد السلطان مراد الأول [سنة ١٣٦٠ - ١٣٨٩ م = ٧٦٢ - ٧٩٢ هـ] وكان تدريبهم ، وتعليمهم العسكرى مركزًا على الطاعة وتحمل الجوع والعطش وكافة الصعاب . وترقيتهم مبنية على الشجاعة والطاعة ، ولذلك اثبتت الإنكشارية وجودها فى كل فتوحات الدولة العثمانية سواء فى آسيا أو فى آوروبا . أو فى شمال افريقيا .

أما لباس الراس عندهم فهو قلنسوة من الصوف الأبيض ، وتتدلى من خلفها قطعة من القماش رمزًا للبركة التى منحها إياهم مرشدهم الشيخ حاجى بكداش كما يعتقدون . وعلى لباس الراس شارة عبارة عن ملعقة من الخشب . وكانت القاب الضباط مرتبطة بمختلف مرافق المطبخ كالجورباجى باشى [رئيس طهاة الحساء] وآشجى باش = [رئيس الطباخين] . واهم الأشياء فى الكتيبة هو القِدر الكبير [القازان] . وكانوا يجتمعون حوله لا لتناول الطعام فقط ، بل للتشاور ، وكان قلب القدر دلالة على العصيان والثورة .

وكانت الفرقة منهم تُسمى أوجاف « أى المعسكر أو الموقد . . وتنقسم إلى وحدات حربية تُسمى كل منها « اورطه » أى فرقة وهى ثابتة العدد ، مختلفة القوة ، تتراوح وفقًا للظروف من ١٠٠ - ٥٠٠ - ٣٠٠٠ جندى . وهذه الفرقة تُقيم فى ثكنات تُسمى (اوضه) = غرفه - عنبر . أما فى ميدان الحرب فكانت الفرق تُقيم فى سكنات عبارة عن خيام واسعة مستديرة ، وقد نُقشت عليها شاراتهم المميزة لكل منهم .

كان يراس الفرقة قائد رتبته [يكچرى آغاسى] أى آغا الإنكشارية . وهو يتولي فوق عمله الخاص ، امر الشرطة وحفظ النظام فى المدينة .

لقد تنوعت أسلحتهم الحربية فى الدفاع والهجوم تبعًا للزمن الذى يعيشون . ولكن كثرة مشاكلهم ، وعصيانهم ، فى فترات ضعف السلاطين ، السلطة المركزية ، ومعارضتهم لكل ما هو جديد لكل ما هو جديد أو أى تطوير فى الجيش بحجة أن هذا بدعة وكل بدعة ضلالة - عندما أرادت الدولة أن تأخذ بالنظام الجديد ، مما دفع السلطان محمود الثانى بالقضاء عليهم فى ٩ من ذى الحجة ١٢٤١ هـ = ١٠ يونية سنة ١٨٢٦ م فى آت ميدانى ، وفى مذبحة شبيهة بتلك التى نفذها محمد علي الكبير ضد المماليك فى القلعة .

وكانت معسكراتهم تنتشر فى كل الولايات العثمانية ، وتُسمى باسم الولاية الموجودة فيها فهناك انكشارية الشام ، وانكشارية مصر وانكشارية اليمن . . الخ . . [المترجم]

تحيط بها أشجار النخيل ، والحدائق ، والبساتين ، بها منازل حوالى ألف وخمسمائة إعرابى ، مواطنيها أثرياء جداً ، محصولاتها ؛ من حبوبيات ، وفواكه كثيرة ، ومرغوبة . تتبع ولاية الشام إدارياً ، وإن كانت ضمن أراضى القدس الشريف . بها ثلاثة جوامع ، وحماماً واحداً . أهلها عصاة شداد .

اشتكى الأهالي في الولاية من خمسة رجال عصاة ، وحدث أن سرق واحد من الأعراب ناقة أحد الحجاج وأخفاها فى منزله بين التبن ، وتم القبض عليه وضربت رأسه .

تم استئجار ألفا جمل ، وقدَّم الأعيان الأطعمة ، والمواد الغذائية ، للباشا الذى ترك بدوره بعض أمتعته ، وحاجياته هنا كأمانات متخففًا منها . ونال الحجيج فى هذه المدينة من الراحة والعطايا والمشتريات ما أنساهم متاعب مزيرب .

وبهذه المنطقة هيكل لكلب تظنه حيّ عند النظر إليه . ويحكى آهالى المنطقة أنه هيكل الكلب الكاسر الذى هاجم النبى محمد ﷺ قبيل البعثة عندما كان متوجها إلى البُصْرَة للتجارة فنهره النبى الكريم قائلاً : «قف يا كلب مكانك كالحجر . .» وبمشيئة الله ، وقدرته تشكل الحجر على هيئة الكلب .

تحركت القافلة من هنا ، وعاودت سيرها ، ونحن معها لمدة ست عشرة ساعة ، حتى وصلنا إلى منزل العقبة :

منـــزل العقبـــة :

عبارة عن منحدر صعب ، تحوطه الصخور الملساء من كلتا ناحيتيه ، يترجل الجميع فى هذا الموقع ، ويُتابع كلٍ سيره ماشيًا وقد سحب دابته . مكان تحف به المخاطر ؛ وقد قام البدو بنهب الحجاج فيه عدة مرات ، مهددين حياتهم ، ولكننا تخطيناه بسلامة الله ، ورعايته ، وسرنا عشرة ساعات حتى وصلنا إلى قلعة حَوْزَيْمان :

قلعـــة حوزيمان :

عبارة عن صخرة واحدة من صنع الله سبحانه وتعالى ، تقع جنوب الصحراء ، لا يقطنها أحد من البشر . وقد أقامت أسماء بنت السلطان سليمان حوضًا للمياه فى

جنوب هذا المكان ، وإن كانت مياهة تميل إلى الملوحة بعض الشئ ، وبعد ذلك عبرنا صحراء جرداء لمدة ست عشرة ساعة حتى وصلنا إلى قلعة نبع النبى ...

قلعـــة نبـع النـبى:

بناها معاوية سنة ٥٦ هـ ، وبالقلعة قوة قوامها مائتى نفر على رأسهم چورباجى من قوة انكشارية الشام . داخل القلعة مائتى حُجرة ، ومسجداً وحماماً . وكان الرسول الكريم ﷺ قبيل البعثة ، وعند توجهه إلى البصرة للتجارة قد حفرها بيده الكريمة ، فخرج الماء ساخناً ، وهى مياه مباركة ، مَنْ شربها وهو مصاب بالإسهال يُشفى منه فوراً بإذن الله ، وعلى حافتها ، مصلى صغير ، يتسع لخمسة أشخاص بالكاد . وكان النبى الكريم ﷺ يتعبد فيه . ومن خصائص هذا المكان ؛ أنه إذا ما نام به العليل بعض الوقت شفاه الله ، وعافاه ، وإذا ما قام الفقير بالخدمة فى هذه القلعة ؛ أنقذه الله من براثن الفاقة ، وبراثن الفقر . وحول هذه القلعة قرى عامرة ، وأرض خِصْبة معطاءة . يتوافد القرويون فى هذا الموقع على الحجاج ليبيعونهم ما يحتاجون إليه من نتاج أرضهم . نهضنا من هذا المكان ، وتابعت القافلة المسير سبع ساعات ، وسط الصحراء الجرداء حتى وصلنا إلى « شجرة الحور الجاحدة » وهى بلا ماء ، أو نبات ، ولم تتوقف القافلة بها ، لضيق الوقت ، بل تابعت سيرها لمدة إثنتا عشر ساعة أخرى ، حتى :

مرحلة قلعة النخلة العاصية:

تقع فى منتصف الطريق إلى مكة ، وعند العودة يقوم باشوات نابلس ، وعجلون ،

---

(١) السلطان محمد الرابعَ : (١٦٤٢ - ١٦٩٣م = ١٠٥٢ - ١١٠٥ هـ . بعد تنحية السلطان إبراهيم عن العرش بالقوة ، فُتح الطريق على مصراعيه أمام ولى العهد محمد لكى يكون سلطاناً . فتولى العرش فى الثامن من أغسطس سنة ١٦٤٨ م وهو مازال صغيراً ، مما أدى إلى زيادة القلاقل .. ولكن عندما اشتد عوده عُيِّن فى الصدارة مَنْ هم على علم وخبرة ودراية ، وعقد العديد من المعاهدات مع النمسا ، والصرب .. ولكنه قام بحروب على روسيا وكريت وفتح الأخيرة . وتوجه إلى لهستان للمرة الثانية سنة ١٦٧٦ م وفى سنة ١٦٨١ م عقد معاهدة صلح مع الروس ، وفى سنة ١٦٨٢ م قرر الدخول فى حرب ضد النمسا ، ولكن نتيجة للهزيمة التى مُنى بها الجيش تم اعدام الصدر الأعظم فره مصطفى باشا المرزفونى .. وخلال سنتى ٨٤ ، ١٦٨٥ م فقدت الإمبراطورية بعض قلاعها المهمة . وسقطت بعضها الآخر فى يد الأعداء دون حروب تذكر .

وفُقدت المجر تماماً بعد سقوط بودين فى يد العدو سنة ١٦٨٦ م . ثم موهاج ١٦٨٧ ، وآثينا سنة ١٦٨٧ ، بالرغم فى كل ذلك ، افتتح فى عهده العديد من الجوامع والمؤسسات المعمارية الكبيرة .

أُنزل عن العرش فى الثامن من شهر ديسمبر سنة ١٦٨٧ م . « المترجم »

وأثرياءهما ، بإغراق الحجاج بخيراتهم مما لذ ، وطاب أكله . وقد شيدها نور الدين شهيد ولكنها تهدمت مع مرور الزمن ، ولكن بناءاً على فرمان السلطان محمد الرابع[1] قام ناشف أوغلى بتجديدها ؛ محيطها أربعمائة خطوة . وعلى بابها تاريخ مكتوب نصه : « فى أيام مولانا السلطان محمد خان ابن إبراهيم خان مُدَّ ظله قام أمين دفتر دمشق ناشف زاده محمد الفقير سنة ١٠٦٢ بتعميره .. » .

يوجد بها مدافع ، ومَدْفَعْجِيَّة ، وقوة من انكشارية الشام . تحتوي على جامع ، وحمام ، وعين ماء ، كما أن هناك نبع كبير فى غرب القلعة ؛ وهو من مآثر الرسول الكريم . ومعجزاته ، فمما يُروى فى هذا الصدد أن الرسول ﷺ بينما كان يمر من هنا التجار قبل البعثة لم يعطهم أهل هذه المنطقة ما يَسد رمقهم ، أو يُذهب عطشهم . فقال ركب القافلة .. « يا محمد إن هؤلاء القوم لن يساعدوك ، ولن يعطوك تمراً .. » فما كان منه ﷺ إلا أن تفضل بالقول .. « فليكن نخلهم مثلهم عاصياً مُجْدِباً غير مثمر ... » ولهذا فإن نَخيل هذه المنطقة مجدب ، غير مثمر ، وجريده ، وأغصانه لا تجدى ، ولا يتأت منه أي نفع . توسل الآهلين إلى الرسول الكريم آنذاك قائلين « .. نحن أخطأنا وأنت أكرم مِنْ أن تُعاملنا بمثل أفعالنا .. فلا ماء عندنا فادعو لنا دعاء الرحمة ... » فقام الرسول الكريم بحفر الأرض بيديه الكريمة ، فخرج منها ماءٌ عذبٌ متدفقٌ . ما زال يروى الحدائق ، والبساتين ، ويملأ الآبار ، والعيون التى بداخل القلعة . وما زال الحجيج يغتنم منها ما يكفيهم تاركين ما يزيد عن حاجتهم ..

خرجنا فى هذه الليلة المظلمة على أضواء المشاعل ، وكانت تُحيط بالقافلة قوة عسكرية ، مسلحة تحرسها . واستمرت فى السير سبع ساعات حتى وصلت إلى موقف « المقابر » .

مَنزل المقابر :

كانت مدينة كبيرة فى زمانها ، ولكنها الآن أطلال خَرِبة ، مدفون بها « آصف بَرْخِيا » وزير سيدنا سليمان ، على بعد نصف ساعة من الطريق ، ويبدو أنها من عمل العمالقة ، فقبتها عبارة عن صخرة واحدة وبرخيا هذا هو الذى أحضر بلقيس من مدينة سبأ .

وبعد أن جلسنا هنا ساعة للإستراحة تابعنا المسير ست ساعات وتخطينا مرحلة العقبة كلها بعد مسيرة إثنتا عشر ساعة .

منزل قلعة حَيدر:

يسكن بها العرب الحَيْدَريون ، وحسب رواياتهم أن سيدنا علي رضي الله عنه هو الذى بناها ، ثم جددها حيدر باشا والى الشام . [1] وهى عبارة عن قلعة رباعية الشكل على حافة جبل أملس ، مطلة على ثلاثة وديان ، وبداخلها معسكر لإنكشارية الشام . وبها أيضاً ما بين أربعين ، أو خمسين غرفة للعرب العذَاب . كما أن بها مسجداً ، وعلى الطرف الأيمن من الباب الخارجى توجد بحيرة صغيرة ، مياها باردة كالثلج ، وبها مؤن كثيرة . وكان المولي عز وجل يفيض علينا بنعمه وإحساناته الكثيرة فى كل منزل ننزل به فى صحبة حسين باشا حيث كان يكرمنا بأطيب الأطعمة وألذها .

ليس هناك قرى فى ضواحى قَصَبَة حيدر . ويحكى المعمرون هنا أن نهر مراد أحياناً ما كانت تفيض مياهه فتحول هذه الصحراء إلى بحر متلاطم الأمواج تصل مياهه إلى هذه القلعة . ونهر مراد هذا قريب من بغداد .

إن المجيئ إلى هذه القلعة ، والمرور بها ، أمر مسلم به ، ومتبع بين جميع الحجاج . وقد أُخبرنا أن قافلة الحج المصرى قد مرت من هنا منذ عشرة أيام . وتم تغيير جند الحراسة ، وقوات الأمن . وخرجنا من هنا ، وقطعنا مسافة ثمانية عشر ساعة فى الصحراء .

قلعة شيرين المعظمة:

من أعمال الملك المعظم طوران شاه الأيوبى [2] وطوران شاه هو ابن نجم الدين

---

(١) حيدر باشا : من وزراء عهد السلطان سليم الثالث ، هو مؤسس معسكر = قشلاق حيدر القريب من السليمية . هناك فى إستانبول محطة كبيرة لقطار الشرق السريع تحمل إسمه ، وهى فى الجانب الآسيوي . وقد زادت شهرته لهذا السبب . «المترجم» .

(٢) طوران شاه الأيوبى : تورانشاه هوالملك المعظم شمس الدولة فخر الدين بن نجم الدين ايوب ، شقيق القائد المشهور صلاح الدين ، أنتقل من الشام إلى مصر مع عائلته سنة ٥٦٤ هـ=١١٦٨م أظهر حماساً كبيراً فى الحروب التى خاضها مع السودانيين ، فاقطعه آخوه قوص واسوان تمكن من السيطرة على النوبة سنة ٥٦٨ = ١١٧٢م ثم كُلف بفتح =

صالح الذى كان ملكًا على مصر ، واستشهد أثناء حروبه مع الإفرنج . وقد اتفق المصريون على تنصيب زوجته شجرة الدر مكانه . وأصبحت ملكة على مصر ، ثم استدعت إبنها طوران شاه وأصبح سلطانًا مستقلاً سنة ٩٣٨ هـ = ١٥٣١م .

قام السلطان مراد [١] بإعادة بناءها سنة ٩٨١ هـ = ١٥٧٣م . وقد تمكن البدو من الدخول إلي القلعة سنة ١٠٣٥هـ = ١٦٢٥م بعد استشهاد كل حراسها ، وحملوا كل ما كان بها . وبقيت على حالتها تلك منذ ذلك التاريخ . مُحيطها أربعمائة خطوة . كان يجب وضع جند فى هذه القلعة لتأمين سبل الحياة فى هذه المنطقة ، لأن الذين سيأتون إلى هذه المنطقة ما لم يجدوا ماءًا بها فإنهم لن يجدوا له أثر فى « شق العجوز » على الرغم من أن هناك بحيرة قوامها حوالى مائتى متراً وعرضها عشرة باعات بجوار هذه القلعة وقد قام الملعون المسمى ابن رشيد [٢] بغلقها فى السنة الماضية ، وأطلق النيران على الحجاج ، ولم يحظ الآلاف منهم هم ، وبهائمهم أي قطرة من الماء، لدرجة أن العديد من الحجاج قد تقددت أجسادهم من شدة العطش وقيلولة الشمس . وكانوا يرقدون – كما يحكى البعض – وكأنهم من الطين الصلصال الجاف .

لذا ، فإن المحافظة علي هذه القلعة ، وتعميرها ، يُعد من الفروض الواجبة .

= اليمن بعد هذا التاريخ بسنة ، تمكن من فتحها سنة ٥٧١ هـ = ١١٧٥م وشكل بها حكومة ثم عاد إلى مصر سنة ٥٧٢ هـ ومنها عيّن من قبل أخيه والياً على الشام ، ثم أرسله صلاح الدين إلي مصر خلال حروبه سنة ٥٧٤ هـ = ١١٧٨م ثم أصبح والياً على الاسكندرية ، ومات بها سنة ٥٧٦ هـ = ١١٨٠م كان جوادًا ، سخيًا ، ترك بعد وفاته تركة عبارة عن مائتى ألف دينار . « المترجم »

(١) السلطان مراد : المقصود هو السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأول ووالدته هى ماهبيكر سلطان .. ولد فى ٢٧ / ٧ / ١٦١٢ م .. تربى فى دائرة والده سلطان فى سراى طوب قابى .. ظهر فى اشد فترات الدولة العثمانية اضطرابًا .. تولى السلطنة وهو فى سن صغير مما أعطى الفرصة لامه ، ولقادة الانكشارية للتدخل فى أمور الحكم .. ولكنه نجح فى القضاء على الكثير من ثورات الجند .. وحقق بعض الانتصارات للدولة . وفتح بغداد سنة ١٦٣٩ م وكان قد حاصرها من قبل فى سنة ١٦٣٠ م . عقد مع ملوك البلقان بعض معاهدات الصلح .. كان محبًا للأدباء وإن اعدم الشاعر نفعى سنة ١٦٣٧ م .

تولى السلطنة فى العاشر من سبتمبر سنة ١٦٢٣ ، وتوفى فى ليلة ٩ / ٨ فبراير سنة ١٦٤١ م .

أكثر من عزل وتعيين الصدر الاعظم مما لم تتوفر به الفرصة لزيادة الاعمار فى الإمبراطورية .. اهتم بالحرمين الشريفين ، وتأمين القوافل خلال مدة حكمة ، [المترجم]

(٢) لم يكن بن رشيد موجودًا فى ذلك التاريخ ، ولعله يقصد إسمًا آخر غير بن رشيد ، حيث أن بن رشيد لم يظهر على الساحة السياسية فى هذه المنطقة إلا فى نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين . (المترجم)

بقينا هنا ساعة ، وبعدها غُصنا ثانيًا فى بحر الرمال اللانهائى وسرنا به ثمانية عشر ساعة مستمتعين تارة بهديل القُمْرِى ، وتارة أخرى بمطاردة النعام ، أو صيد الغزلان ، والآرانب البرية .

منزل شق العجـــوز:

أُطلق عليه هذا الاسم لإن على بن أبى طالب رضي الله عنه كان قد شق عجوزاً شمطاء إلى شقين بسبب سوء خُلقها ، ومازال جسدها كالحجارة السوداء فى غرب الطريق . ويطلق الآهالى على هذا المكان « المنطقة التى لا يمر بها الخازوق » . وقد أمرت ، والدة السلطان بحفر عدة آبار فى هذه المنطقة هذه السنة . لم نمكث هنا طويلاً . وبينما كنا نسير مستمتعين بهديل القُمرى ، فإذا بصوت جاويش الكتيبة يقطع هذا السكوت معلنًا : « سنصل اليوم عند الظهر إلى الممر الضيق المسمى « قضاء سيدنا صالح » فاستعدوا ، وكونوا على يقظة تامه لإن ابن رشيد قام بقتل الحجاج فى هذا الموقع فى العام الماضى . والواقع انه منقاد لطاعة حسين باشا هذا العام ، ولكن ربما تشعر قبيلة أخرى برغبة فى النهب أو يستشعرون لذة من ذلك . فلا تغفلوا . . . » . وقد حرص الباشا على أن يجعل الجند يسيرون فى نظام وانتظام بأسلحتهم وهم فى وضع الإستعداد الدائم . وبعد قليل عاد المبشرون من المقدمة معلنين :

« كان الآعرابُ ينتظرون وصولنا بعد يومين . ولقد قضينا علي بعض العصابات وعدنا ببعض الرؤوس والألسنة . . » .

عتيـــق الرمـــال:

ماأن تصل القافلة إلى مضيق النَقَب حتى تواجه بعتيق الرمال ، وهو بحر من الرمال والنيران ، وعنده تتسمر الجمال واقفة وهى تبعبع . ويُسمى الجبل المحيط بهذا المضيق « جبل الناقة » وسبب هذه التسمية أن سيدنا صالح قد أرسل إلي قومه فى هذه البقاع ، ولم يؤمن بع بعض من قومه ، وأنكروا عليه دعوته ، وأصروا على عقر ناقته ، فأخذوا يرصدونها ، وخرجوا يرقبونها ، فلما صُدّت عن وردها ، ورجعت عن مائها ، فرموها بسهم انتظم عظم ساقها ، وابتدرها آخر منهم بالسيف ، فكشف عن عرقوبها ، فخرت على الأرض ، فطعنها فى لبتها فنحرها . . . فرعدت السماء رعدة

مدهشة ، وإلى الآن يُسمع الصوت من هذه الصخرة . وصخور المنطقة كلها ملساء . ومازال الشق الذى أحدثه جبريل عليه السلام بجناحيه واضح للعيان حتى اليوم . إن بعض النوق تسمع صوت ناقة صالح عليه السلام أثناء المرور من هذه المنطقة الصخرية، وتلك النوق التى تسمع الصوت تتجمد فى مكانها ولا تستطيع الحركة ، ولذلك ، فإن القوافل عند مرورها من هذه المنطقة تُطلق المدافع والبنادق ويكبر المارة مرددين بصوت عال « الله ... الله ... الله اكبر .. » حتى لا تسمع النوق صوت الأنين الصادر عن ناقة صالح عليه السلام . ومع أن قافلتنا قد فعلت نفس الشئ ؛ فأطلقت المدافع والبنادق .. وكبرنا جميعًا ، إلا أن سبعون ناقة قد توقفت فى مكانها ، ولم تستطع الحركة ، فقام أصحابها بذبحها فداءًا فى سبيل الله .. وتَرضية للباشا ؛ وهم يقولون .. « .. لقد سمعت الإبل صوت الناقة الصغيرة بين الصخور .. ولن تُرجى منها فائدة بعد الآن .. » .

قام عصاة البدو وأشقياءهم ، بالتفرق والتشتت فى أماكن بعيدة ، بعد أن سمعوا جَلَبة القافلة ، وطنطنة قوات حسين باشا .

ويُمثل شمال مضيق الناقة هذا حدود الشام ؛ حيث أن من يمتلك أمور مصر ، أو يحكمها ، تكون مكة المكرمة ، والمدينة المنورة تحت حكمه ، وإدارته . ويأتى القمح ، والمؤن إلى المدينتين المقدستين من مصر عن طريق السويس ، ولولا مصر لمات أهل الحجاز ، والطائف جوعًا .

وقد حدث أن وقعت مصر فى أيدى الروم سنة ٢٦ م فاستولى الزنوج على مكة والمدينة ، فما كان من « دار شاه » سلطان بغداد آنذاك إلا أن أعمل سيفه فى رقابهم ، وفتح الحجاز ، وكان يرسل المؤن إلى مكة ، والمدينة سنويًا . ولم تدخل مكة المكرمة، أو المدينة المنورة – منذ العصر الجاهلى – تحت نفوذ الكفرة ، ولن تدخل قط ، إن شاء الله .. وإن كانت المدينتين المقدستين قد خضعتا فى بعض العصور لسيطرة بعض المذاهب الغير سنية .

والحجيج الذين تطأ أقدامهم حدود صخرة الناقة ، يترجلون ويدعون الله قائلين « اللهم ثبت قدمى على طريق عرفات » وتستغرق الرحلة فى هذه المنطقة ساعة واحدة ، حتى تدخل القوافل وادى سمود .

قوم سمود ؛ أى آبار صالح:

هى حدود الكعبة ، بها آبار كثيرة واسعة ، متدفقة المياه ، كانت من مدن سيدنا صالح . وبها الكثير من المراعى المُعْشِبة الخضراء ، يتوقف بها الحجيج فترة للإستراحة ، والإستزادة من حدائقها ، وبساتينها ، وفواكهها ؛ وأحد هذه الأطلال يُطلق عليها مدينة الوادى العتيق .

الوادى العتيق:

أطلال مدينة تُحيط بها حدائق النخيل من كل جانب ، يأتيها العرب فى موسم التمور ، لجمعه ، والتمتع بطلاوته ، وبالقرب منها مدينة أخرى تُسمى وادى صفره .

وادى صفره:

أطلال مدينة قديمة تُسمى « وادى صفره » ، وهى عباره عن أطلال ، وبقايا ، وخرابات ، وسط الحدائق ، والرياض ، والبساتين . يسعد بها العرب ويستلذون فواكهها .

وادى القُرا:

شيده قوم سمود ، مَنَازِلة عبارة عن مغارات ، شُقَت فى صخور الجبال ، تحيط به مجموعة من الصخور التى يمكن للإنسان ان يستخلص منها العبر ، ولم أر مثل هذه الصخور فى أي بقعة اخرى من ديار العالم ؛ فبعضها كالسرو ، وبعضها كالأفاعى ، أو التنين . والبعض الآخر كالأسود المتنوعة ، أو كالسفن المبحرة ، أسفلها مجوف ، ومُقسَّم إلى غرف ، وحجرات ، وبعضها ؛ كخراطيم الأفيال المشرئبة ، وقد تشابكت بعضها بالبعض الآخر . لأرضية مفروشة بالرمل الناعم ، وبين خضم هذا البحر الرملى ، تُرى القواقع ، والأصداف ، المتنوعة ، لشتى مخلوقات البحر ، مما يجعل المتامل لها يقتنع تمام الإقتناع بأن هذا المكان كان فى الزمن الغابر بحراً متلاطم الأمواج ، يعج بكثير من المخلوقات وقد قرأت – أنا العبد الحقير – فى التاريخ اليونانى القديم ، أن صحراء مكة المكرمة ، والمدينة المنورة كانت كلها بحراً متلاطماً قبل أن يفتح الإسكندر

ذى القـــرنين [1] مضيق سبته . ومن الممكن أن يقبل العقل ذلك ، وهكذا .. فإنه عندما كانت صحارى الكعبة بحراً ، جفت مياهه مع مرور الزمن ولم يبق سوى بحرالسويس [والله على كل شئ قدير] . وتحركت القافلة من هذه المنطقة ، بعد العصر ، إلى مدينة سيدنا صالح .

مدينـــة ســـيدنا صالـــح:

كان سيدنا هود ، وصالح ، وسمود ، وقفّاح قد عاشوا فى هذه الديار ، وبعثهم الله إلى قوم سمود . وقد قُمت مع سبعين أو ثمانين رجلاً بزيارة هذه المدينة ، ومشاهدة بقاياها ، وأطلالها ، وقد أدى ذلك إلى تخلفنا قليلاً إلى مؤخرة القافلة .

وجبالها عبارة عن مغارات ، يربط بينها أنفاق ، وممرات ، يعجز اللسان عن وصفها ، وتثبت للمشاهد أنهم – فى ذلك الزمان – كانوا قد سيطروا على الحجارة سيطرة كاملة ، وأنهم كانوا يشكلونها ، ويقطعونها ، وكأنهم يقطعون جُبّنًا هشًا . فقد شقوا فى الصخور النوافذ ، والأبواب ، وزينوها بالحفائر ، والنقوش البارزة ، والغائرة ، وشقوا الطرق بينها ، وشيدوا القصور ، وأقاموا الإيوانات ، والدواوين ، وحفروا تحت سطح الأرض قاعات تتسع الواحدة منها إلى ألف أو ألفا شخص . وفوق أبواب هذه المدينة ثُبتت كتابات عبرية ، وسريانية ، مكونة من سطر ، أو سطرين ، وهى عبارة عن تواريخ ، وإن كان الناظر إليها ، يظنها نقوش ، فنيه ، بديعة . وقد قُمت – أنا العبد الحقير – بنقشها ، ورسمها ، لتكون مطابقة للأصل قدر الإمكان . وإن شاء الله سأقوم بتصحيحها ، عند إعادة كتابة هذه المسودات . كما نُقشت بعض الصور المخيفة على بعض الأبواب كرأس طائر كاسر ، أو تنين ، أو حيوان مفترس وقد دخلت إلى أعماق هذه المغارات ، وكان بها العديد من الهياكل البشرية ، رؤوسها فى حجم يقطين أطنه = آضنه ، أزرعتها طويلة ؛ تبلغ

---

(١) اسكندر ذو القرنين = ذو القرنين :

من أكبر فاتحى العالم ، مقدوني الأصل . كان يرتدى تاجًا له شارتان كالقرنين فلقبه الناس بهذا اللقب .

مر اسمه فى القرآن الكريم كفاتح من أكبر الفاتحين ، وقد قام بصراع طويل ضد قومي ياجوج وماجوج عند حدود الصين، وتقول الأساطير كان يبحث عن ماء الخلود . اختلف المفسرون حول نبوته وإن اتفقوا حول ولاية مَنْ ذكر فى القرآن الكريم . وتختلف الآراء حوله . (المترجم)

سبعة أو ثمانية أذرع ، بعضها تآكل ، ولم يبق منها سوى عظمتين ، نحيفتين أو ثلاث .

ولما كانوا قد كفروا بسيدنا صالح ، ولم يُؤمنوا به ، ولم تَلِنْ قلوبهم ، إلى الإيمان ، جاءهم النذير من ربهم ، على شاكلة صوت مهلك ، فَمَنْ لم يؤمن صُعِق . وجاءهم جبريل بأمر من ربه ، وحملهم على جناحيه ، وأعادهم إلى الأرض ، فارتطموا بها ، رطمة قاضية ، أودت بهم ، وقضت على قصورهم ، وبيوتهم ، إلا قلة ، بقيت سليمة ، ولم يصبها الدمار ، وتلك هى منازل مَنْ آمنوا بالنبى صالح ، ومقبرة النبى سمود ، كانت مقامة فوق قصرٍ فى مغارة ، داخل صخرة طويلة .

زيارة النبى سمود :

هو الأخ الأصغر لسيدنا صالح ، نزلت فى حقه الآية الكريمة : ﴿ **وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ** ﴾ (*) طول مقبرته سبعون خطوة ، وقد أقام النحل فيها خلاياه ، وإذا ما حاول البدو أن يفتحوا فيها فتحة ليأخذوا منها العسل ، فيصيبهم الدمار ، والهلاك . وعلى بُعد ألف خطوة فقط كانت تقع قلعة دُبَّل ، وجذّل .

قلعة دُبَّل ، وجذّل :

كل منهما حِصن ، قد قُد فى الصخر فوق قمة الجبل ، لم نستطع التفرج عليه أو مشاهدته عن قرب ، بسبب ضيق المكان ، وفى الغالب لم يكن به أحد . ولكن كانت هناك تحت سفح الجبل ، والحصن مباشرة ، حديقة نخل يسمونها « قرية جَذَل . وقد عبرناها ، واستمرت مسيرتنا خمس ساعات ، حتى وصلنا إلى قلعة العُلا :

مرحلة قلعة العُلا :

شيد القلعة سيدنا هود ، وأعاد بناءها معز الدين الفاطمى سنة ٣٥٨ هـ = ٩٦٨م (١) ، والقلعة ثلاثية الأضلاع ، خفرها من العرب ، لا علوفة عندهم ، ويوجد

(*) سورة الأعراف آية ٧٣ .

(١) معز الدين الله الفاطمى : هو معز لدين الله ؛ ابو تميم معد بن منصور بن القائم بن المهدى ، هو الرابع بين =

داخل القلعة عشرة منازل ، وخارجها ما يقرب من سبعمائة منزل سليم ، سقوفها مغطاة بالطين ، آهاليها من أتباع المذهب المالكى ، المياه متوفرة فى كل منزل من منازلها ، تُمورها لا مثيل لها فى ديار أخرى . والنهر الذى يمر وسط المدينة يروى الحدائق ، والبساتين ، التى تنتج الليمون ، والنارنج فى حجم رأس الإنسان . محصولها من القمح وفير ، ينضج فى شهرين ، نساءها جميلات المظهر والمخبر ، أهلها شداد ، عصاه ، غلاظ . يقدحون الحجاج المسلمين بـ « القرمانى ، أو أولاد النصارى » .

نادى المنادون بأن القافلة ستستريح هنا يومًا واحدًا . . وصدر أمر إلى الآهالى مفاده « على كل من الآهالى أن يخرج ما فى بيته من بضائع إلى السوق ، وإلا ستُقطع رأسه » . فأخرج الأهلون ما لديهم ، وتكدست البضائع فى السوق ؛ من خبز ، وبقسماط ، ومأكولات مختلفة . فاشترى الحجاج حاجتهم . وأحضر ألف جمل ، استبدلت بعضها بجمال الحجاج النحيفة المنهكة ، وأستأجر البعض الآخر . وقدّم الآهالى إلى الباشا الأشياء المعهودة حسب القانون .

أقام الباشا الحراس ، فى كل مكان ، هذه الليلة ، وجعل المنادين ينادون فى الحجاج ، بضرورة أن يتخذوا الحذر ، والحيطة ، ولكن الحجاج المساكين – الذين لم يذق أى منهم طعم الراحة ، أوالنوم منذ مدة – قد استغرقوا فى النوم فور خلودهم إلى الراحة . وما أن انتصف الليل حتى نجح بعض لصوص الآعراب فى الإندساس بين الجيش وفى أيديهم الحبال ، والأربطة ولكن قوات السكبان [1] والصاريجة [2] الذين

= ملوك الفاطميين ، اتخذ من القاهرة عاصمة لمصر بعد فتحها ، ولد فى المهدية سنة ٣١٨ هـ ، عيّن وليًا للعهد فى زمن والده ، وتولى العرش عقب وفاة والده سنة ٣٤١ هـ .

بعد أن أقر الأمن والهدوء فى بلاد المورسكين ، وشمال افريقيا بعث بجيشه تحت قيادة جوهر الصقلى إلى المغرب ، ففتحها وادخل كل بلدان البحر الابيض تحت سيطرته ، ووصل بالبحر إلى المحيط ، وفى سنة ٣٥٨ هـ بعث بجيش أكثر كثافة تحت قيادة جوهر الصقلى أيضًا إلى مصر . وصادف ذلك وفاة كافور الإخشيدى ، وعم مصر القحط ، والوباء مما سهل دخول جوهر إلى مصر ، وخضعت له بالتبعية الشام والحجاز التى كانتا خاضعة لمصر . أسس مدينة القاهرة ، وأغرى جوهر المعز بالمجئ إلى القاهرة ، وأخيرًا وصل المعز مصر سنة ٣٦٤ هـ ونقل رفاة أجداده وآباءه إليها ، واتخذها عاصمة لملكه ، استمر فى الحكم ٢٤ سنة ؛ ٢١ فى المغرب وثلاث فى مصر توفى سنة ٣٦٢ هـ ، كان عالمًا ، وشاعرًا ، وحكيمًا، وعاقلاً ومدبرًا لكافة الامور . « المترجم »

(١) السكبان : « Sekban » : فرقة من فرق قوات الانكشارية ، تكونوا فى عهد محمد الفاتح ، وكانوا مكلفين برعاية ، وتربية ، وتدريب كلاب الصيد . . ثم انخرطوا فى صفوف الانكشارية ، وأصبحوا من عمدة المشاة فى الجيش =

كانوا كامنين فى مخابئهم ، استطاعوا القبض عليهم ، واقتادوهم إلى الباشا فوراً ، فأمر بجز نواصيهم ، دون رحمة ، وهَوادة . مكثت القافلة يوماً آخر للراحة ، ثم تحركت فى الصباح الباكر . وعندما وصلنا إلي المضيق ، انهالت علينا رصاصات آعراب « عُلا » "Ula" ، ولكنا حمداً لله لم يصب أحد بسوء ، ورد الجند بالهجوم فأصابتهم الدهشة ، ولم يدروا كيف يتصرفون حيال هذا الهجوم المضاد ، المفاجئ . وكانت النتيجة أن قُتل حوالى أربعين بدوياً فى هذه المحاولة .

دقت طبول الموسيقات العسكرية ، وصدحت معها الجبال ، وتردد الصدا فى جميع الأنحاء .. أكلنا اللوز النبوى الذى تشتهر به هذه المنطقة . ثم قطعنا ست عشرة ساعة أخرى ...

منزل بئر رُمرد :

مرحلة وسط الصحراء ، ليس بها ماء وفير . نَشب عِراك حول الماء ، مما أدى إلي مقتل أحد الأبطال . وما أن عبرنا هذا المكان حتى نادى المنادون « ... يا أمة محمد ... إننا سنمر الليلة من بين يهود خيبر ، إنهم يشربون دماء محمد ﷺ نفسه لو كان حيًّا ، فمن كانت حياته ، وماله غاليًا عليه ، فليكن حذراً .. » .

وما أن خُيِّم ظلام الليل حتى أشعلت مئات الألوف من المشاعل والفوانيس والمصابيح . وتم القبض على ثلاثة يهود ، وقُطِعت رقابهم كانت الطرق فى هذه المنطقة مليئة بالأشواك ، محاطة بأشجار السنط ، المليئة بالشوك ، ومن الطريف أن عمائم وقلانس الكثيرين قد بقيت معلقة بهذا الشوك . كما جُرِح الآلاف منه . وأدميت أطراف البعض . تعلق قلباق [1] أو أحد من البوشناق [2] فى هذا الشوك قد

= العثمانى . وكانت اورطتهم موزعة على ٣٥ بلوكًا .. وعلى رأس كل بلوك ضابط ، ويطلق على رئيسهم فى التاريخ العثمانى . « سكبان باشى » أي رئيس السبان . « المترجم »

(٢) الصاريجية = صاريجه Sarica مصطلح عسكرى يُطلق على عصاة الجند فى منطقة الأناضول خلال فترة حكم الدولة العثمانية . وقد نُسبوا إلى صاريجه باشا الذى تعرض لغضب السلطان محمد الفاتح لما ارتكبه من عصيان وثورة . وقد مرت هذه الحادثة فى التاريخ العثمانى تحت مسمى « عصيان صاريجه باشا » وأصبح هذا المصطلح يطلق على الجنود الذين يظهرون العصيان .. فيتم ابعادهم عن العاصمة . « المترجم »

(١) قلباق : غطاء رأس يُصنع من الجلد ، أو الوبر ، أو الجوخ ، ويرتديه التتار ، والبلغار ، والجركس ، ومنه أنواع عديدة . يرتديه الخيَّالة .. ومنه أنواع تُصنع من السمور ، والفراء وقد ارتدت طائفة من التركمان نوعًا منه لونه اسود ، فأطلق عليهم هذا الإسم . « المترجم » =

اخذته سنة من النوم فظن أن اليهود هم الذين اخذوه فإستل سيفه ، وهاج ، ولم يهدأ إلا بعد أن جرح ثلاثة من رفاقه . سارت القافلة فى هذه المرحلة سبع عشرة ساعة .

منزل البئر الجديد :

والدة السلطان محمد الرابع [1] هى التى أمرت بإنشاءه سنة ١٠٨١ هـ = ١٦٧٠م عمقه حوالى أربعون زراعًا ، واتساعه حوالى مائة خطوة . ما أن وصلناه حتى وجدنا البدو قد ملئوه بشوك الجمل ، ولكن القائد حسين باشا ، وتحت إمرته آلاف الجند ، استطاعوا أن يُنظفوه فى غضون ساعة وبدت للعيان مياهه الرائقة كالبلور .

انتشرت حوله نباتات السينامك ، وهى من النباتات المسهله . ويطلقون على هذا الوادى « شعيب النعام » وهو مكان كثير الكلأ ، وحسب الكتب الدينية كان موسى عليه السلام يرعى أغنام سيدنا شعيب فى هذا الوادى .

زيارة سيدنا هود :

لقد أرسل الله سبحانه وتعالى هودًا على قوم عاد ، ولكنهم لم يؤمنوا به ، فأرسل الله عليهم ريحًا صرصرًا عاتية ، ظلت ترطم بعضهم بالبعض حتى أُهلكوا عن آخرهم . ونزلت فى حقهم الآية الكريمة : ﴿ **وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا** ﴾ (*) .

بيت :

لقد هبت تلك الرياح ، العاتية ، مرة واحدة على الدنيا ، فاقتلعت قوم عاد ، وقطَّعت أوصالهم ، ثم هدأت . [2]

= (٢) البوشناق : Bosnak هم من آهالى البوسنة ، أو مَنْ ينحدرون من نسبهم ، يتسمون بالجمال ، وهم من المسلمين .. ومنهم مَنْ هم مسجيون يعيشون فى بلاد الصرب والكروات . « المترجم »

(١) والدة السلطان محمد الرابع : هى والدة السلطان محمد الرابع ، وكانت تُسمى طورخان خديجة سلطان .. اصبح لها نفوذ كبير عندما تولى ابنها السلطنة وهو فى سن صغير . وكانت من المحبات للخير .. وانشاء الكثير من العمارة الإسلامية فى شتى بقاع الإمبراطورية . « المترجم »

(*) سورة الحاقة الآيتان ٦ – ٧ .

(٢) دنياه اول بل بركز اسوب دورور ... عاد قومينك كوكسده كسوب دورور

قدم هود عليه السلام إلى هذه الديار ، وتوطنها ، ثم توفى بها عن عمر جاوز المائة وخمسين سنة . وقد أمضى حياته بالتجارة .

وقبيل تحرك القافلة ، من هذا الموقع ، وصل رهط من الفرسان العرب ، يتراوح عددهم ما بين أربعين ، أو خمسين فارساً ، وطلبوا حصتهم من الصرة ؛ وقالوا أنها ستة آلاف وستمائة قرش ، فأخبرهم الباشا « إن القانون لا يسمح لي بدفع أكثر من ثلاثمائة قرش فقط » فقال قائد الفرسان .. « إن تدفعوا . فهذا حسن .. وإن لم تدفعوا فسترون ماذا تشربون من هنا حتى المدينة .. علاوة على ما بالطرق من عوائق » وما أن سمع الباشا هذا الكلام ، حتى أصدر أوامره ، بالقبض عليهم ، بعد أن واجههم بالعبارات التالية . « أيها الكفرة الجاحدين ... لقد اغلقتم الآبار ، وهل تظنون أن ما فعلتموه يخفى علينا .. » وتم القبض عليهم ، وإقتيدوا وسط لعنات الحجاج ، ولطمات الجند ، ورُبطوا بالجمال وهم حفاة الأقدام ، فوق الرمال المحرقة ، وتحت أشعة الشمس القائظة واستمروا على تلك الحالة عدة أيام ، كان من نتيجتها ؛ وفاة إثنين منهم . تابعت القافلة مسيرتها سبعون ساعة حتى وصلت إلى :

مرحلة نبع الهديه :

هذه المنطقة عبارة عن وادى أخضر ، تتراكم فيه مياه الأمطار ، فيستفيد بها الآهالى ، فى القضاء على الجفاف . مياهه تميل إلى الملوحة بعض الشئ ، لدرجة أن مَنْ يكثر من شربها يُصاب بالإسهال . وقد اتضح أن أعشاب هذا الوادى كلها من السينامبك المسهل .

وكانت دهشتنا كبيرة حينما أحضر باشجاويش الشام [1] أحمد آغا ، وكتخدا قاپى قولى [2] أحمد آغا سمكًا ، إلى الباشا ، فسألهما فى حيرة ، « ليس هنا نهير ، أو بحيرة فمن أين أحضرتم هذا السمك ؟ فقالا : « .. يُقال أن الله سبحانه وتعالى جلت

---

(١) باشجاويش الشام أحمد آغا :

من اشهر جاوشية قوات الإنكشارية فى الشام ، وكلّف بالعمل مع قائد قافلة الحج سنة ١٠٨١هـ « المترجم » .

(٢) كتخدا قاپى ، أحمد آغا :

من قوات الحرس فى السراي السلطانى ، ومن المكلفين بإحضار قافلة الحج إلى الديار الحجازية . وكان مع قافلة سنة ١٠٨١هـ .

قدرته كان قد أنزله من السماء ، وكلما أُكل وأُلقى بعظامه فى الرمال ، فإنه يعود إلى الحياة من جديد . . » . وقد أكلت أنا – العبد الحقير – من هذا السمك ، وكان لذيذاً ، ومقويًا ، بدرجة ملحوظة . وكانت الاسماك ، تسبح فى الرمال ، كما لو كانت تسبح فى البحر . ويطلق الآهالى عليها « هدية المائدة » . (*)

لم تتوقف القافلة هنا ، بل استمرت فى سيرها ثلاث عشرة ساعة حتى وصلنا إلى قلعة الفحلتين :

مرحلـــة قلـــعة الفحلتـــين :

يُسميها الآهالى وسكان المنطقة أيضًا « صخرة السلام » ويقولون أن الرسول الكريم « ﷺ » عندما كان يمر من هذا المكان ألقى السلام قائلا « السلام عليكم يا جبل منوَّر » فجاءه صوت من الجبل مجيبًا « وعليكم السلام يارسول الله » .

وتُسمى هذه المنطقة أيضًا ، ولاية بلاد خيبر ، والقلعة مقامة فوق صخرة مدببة ، ويُقال أن أول من أقامها عنترة . ولم يكن بها أحد ، ولم نشأ أن نصعدها ، أو نتفحصها . فى شرق هذه المنطقة ؛ توجد جبال بها عيون مائية عذبة من القاع . وقد قام الجميع بملئ قربهم منها .

فى هذه الليلة شن اليهود هجومًا على القافلة كان من نتيجته استشهاد أحد الأكراد ، وقطع ثلاثة رؤوس منهم .

ديار خيبر هذه منطقة ذات رياض ، ورودها فوَّاحة ، تُعبق الجو بأريجها من مسافة بعيدة . أهلها شجعان ، لم يخمد حقدهم ضد العرب ، والمسلمين ، فما أن يروا عربيًا مسلمًا ، فى أي مكان حتى يودون قتله ، ولكن الغريب أنهم كانوا يفتحون حدائقهم لحجاج بلاد الأناضول . . !!

وكما تسطر كتب التاريخ ؛ فإن الغزوة الخامسة للنبى الكريم « ﷺ » كانت على قلعة « فديك » فى ديار خيبر . وتنسب هذه القلعة إلى « فديك » أم عنترة ابن شداد الزنجية . كما كانت الغزوة السادسة أيضًا فى هذه الديار ، ألا وهى غزوة أحد . وقد

(*) ربما يقصد الكاتب ، الضب الذى يظهر عقب موسم الأمطار . « المترجم » .

قطعت القافلة هذه المسافة فى تسع عشرة ساعة . حتى وصلت إلى ؛ وادى القرى القديم .

وادى القـــرى القديـــم:

ويسمونه أيضًا المدينة القديمة ، مياهه وفيرة ، عذبة ، يفد إليه البدو من المناطق المحيطة ، ليبيعوا منتجاتهم إلى الحجيج . بعده دخلت القافلة ممرًا ضيقًا ، وما أن غربت الشمس حتى أشعلنا آلاف المشاعل والفوانيس تجنبًا لمخاطر قطاع الطرق ، وعبرنا هذا الممر الضيق بسلام ، ونحن تحت حراسة الجند المدجج بالسلاح . وفى صبيحة اليوم التالى وصلنا إلى دار الوداع :

دار الـــوداع أو وادى الإســتقبال:

وتُسمى هذه المنطقة « دارخازن » أيضًا . وجميع الجبال الممتدة من الشام حتى هذه المنطقة ؛ جبال ملساء ، جرداء ، عارية ، من الغابات ، أو الأشجار ، ولما كان أهلها جميعًا يستقبلون أهل المدينة هنا فلذلك سميت « وادى الاستقبال » .

وقد قدم كل أعيان المدينة ، ووجهائها ، ومطوفوها ومرشدوها – مع آهالى المنطقة – لإستقبال الموكب ، وكانوا جميعًا يرتدون ملابس بيضاء ، وجوههم نورانية ، تعلو البسمة شفاههم ، عيونهم حورية كحيلة ، فى صوتهم رقة ، وعذوبة ، تبدوا عليهم علامات الصحة ، أشداء قدموا مهللين ، فرحين ، وقد حملوا هداياهم . مكثنا ساعتين فى هذه البقاع ، قضيناها وسط ترحاب المستقبلين . ولم يكن قد بقى سوى يومًا واحدًا عن حلول شهر ذى الحجة . ولو توقعنا ؛ توقف الحجاج ، يومًا ، آخرًا فى مكة المكرمة ، ولما كانت وقفة عرفات فى العاشر من ذى الحجة ؛ لإتضح من ذلك ؛ أن اللحاق ببداية مراسم موسم الحج غير ممكن ، لذلك تابعت القافلة سيرها ، وواصلت ليلها بنهارها . ولم تحط رحالها منذ الخروج من « مُزَيْرِبّ » .

وهذه المسافة عبارة عن أربع وعشرين مرحلة ، تستغرق ثلاثمائة وخمسين ساعة ، سيرًا بالجمال أما إذا كانت الطرق معبدة ، مستوية ، وفيرة المياه ، والطعام ؛ فإن

المسافة تستغرق مائة ساعة فقط ؛ بالخيول ، والبغال . ولكن لما كانت الطرق غير ذلك ؛ تَحتم على القوافل استخدام الإبل . وكما هو معلوم ؛ فليس هناك فرق كبير ، بين ما تقطعه الإبل ، وبين ما يقطعه المترجل فى سيره ، أو من يسير على قدميه ، لذلك ، لو إهتم السلاطين بإنشاء الطرق الرئيسية ، أو السلطانية [1] من الشام إلى

---

(١) **الطرق السلطانية** : مصطلح إدارى يُطلق على الطرق الرئيسية الواقعة بين الحرمين الشريفين ، ولما كان السلاطين هم الذين يهتمون وكان حجاج بيت الله الحرام يتوجهون بعد الإنتهاء من مناسك الحج إلي المدينة المنورة للتشرف بزيارة المسجد النبوى الشريف ، والسلام على النبى المصطفى ، وزيارة الروضة المطهرة ، والحجرة المعطرة ، وكانت القوافل تسلك طرقًا عديدة ، رأينا أنه من المناسب الإشارة إليها : وخاصة الطرق الرئيسية أى السلطانية ؛

الطريق السلطانى : إن أول منزل للخارجين من مكة المكرمة هو القرية المشهورة المعروفة بـ (وادى فاطمة) . إن هذه القرية تبعد عن مكة مسافة ست ساعات سيراً بالجمال . وتشتهر بعيونها الجارية ، وحدائقها وبساتينها اليانعة التي تشتمل على النخيل وسائرالأشجار الأخرى .

إن الليمون والنارنج وأكثر الخضروات التي تباع فى مكة المكرمة تزرع فى هذه القرية .

والمرحلة الثانية للخارجين من مكة المكرمة تكون عند البشر المسمى (بئر عسفان) . كما تسمى هذه المرحلة أيضًا (بئر التفل) .

وتبعد مرحلة بئر عسفان اثنتى عشرة ساعة عن قرية (وادى فاطمة) ، ومياه تلك الآبار رقراقه وعذبة حلوة المذاق .

ولما كانت مياه تلك الآبار مخلوطة بمياه وجه الأنبياء وبريق سيدنا ونبينيها (عليه وعليهم التحية) فإن مياه النيل والفرات وربما ماء الكوثر تغبطها على طلاوتها . وهنا فى هذا الموضع يوجد البئر المشهور بين العرب ب (بئر التفلة) .

والمسافرون من بئر التفلة يصلون إلى قرية (خليص) بعد ثمان ساعات من تحركهم . وقرية خليص تبعد عن مكة المكرمة بثلاث مراحل ، وتشتمل على العديد من الآبار والعيون الجارية ، كما أن بها الكثير من البساتين ، وحدائق النخيل المثمر .

والقوافل المترددة بين مكة والمدينة تواصل سيرها إلي (قضيمة) بعد استراحة قصيرة تمكنها من الاستسقاء فى مرحلة خليص .

وقضيمة هى المرحلة الرابعة وبينها وبين خليص إثنتا عشرة ساعة سيراً بالجمال .

ومرحلة قضيمة بها ثلاثة آبار ، إلا أن مياهها مالحة بعض الشئ ، وذلك لقربها من البحر . ولما كانت هذه القرية المذكورة وفيرة الأسماك فقد لقيت استراحتها رواجًا بين المسافرين المحليين المترددين عليها .

والقوافل المتحركة من هذا الموضع تصل إلي (رابغ) التى تبعد مسيرة ست عشرة ساعة عن قضيمة من ناحية المدينة المنوره .

ومع أن هناك بعض التباب الصغيرة الممتدة على طول الطريق بين مكة المكرمة ورابغ ، إلا أنها غير مرتفعة بالقدر الذى يحجب الرؤية . ولذلك كانت معظم المواقع فى هذا الطريق ترى البحر بسبب قرب منطقة رابغ من البحر كذلك .

ولما كانت الطرق الموصلة بين قضيمة ورابغ معبدة ورملية فى معظمها ، فلذلك كان السير فيها مريحًا .

وكانت الطرق الموصلة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة تتعدد عن رابغ ، وكان أكثرها استعمالا يسمى (الطريق السلطانى) .

والمرحله الأولى للطريق السلطانى (الرئيسى) أى الاستراحة الأولى للقوافل المتحركة فى رابغ ، كانت فى موقع (مستورة) الذى يبعد ست ساعات عن رابغ .

وبهذه المرحلة التى تقع فى الميدان الصحراوى المسمى (منخفض ميمون) بئران : أحدهما عذب المياه ، والآخر مالح . =

المدينة ؛ لما أصاب البعير ، والدواب ما يُصيبها الآن ، من التعب والإنهاك ، ولكانت الرحلة بالخيول ، والبغال أسرع ، وأقل فى الوقت ، والإرهاق . ولقد منح الله سبحانه وتعالى الجِمال من القوة ، والصبر ، والتحمل ، مايجعلها تواصل السيرحتى وهى نائمة .

تحركت القافلة على الفور ، وبعد ساعة ، تراءت لنا من قمة عالية ، حدائق المدينة

= وبعد مرحلة مستورة تصل القوافل إلي استراحة (بئر الشيخ) ومن ذات نبع عذب المياه ، وتبعد اثنتى عشرة ساعة عن مستورة .

والمسافرون من بئر الشيخ يصلون إلى قرية (سفرا) التى تبعد عن بئر الشيخ اثنتى عشرة ساعة . وبين هاتين المرحلتين بئر مشهور يسمى (ابن حصانى) .

وإذا كانت قرية صفرا كبيرة حد ما ويقطنها حوالى خمسمائة نفس ، إلا أنهم جميعًا ما زالوا يعيشون حياة البداوة .

ومع أن هذه القرية المذكورة تمتلك المياه الجارية والأشجار المتعددة إلا أن معظم مغروساتها محصورة فى أشجار النخيل والليمون والحناء .

وبعد صفرا بثلاث ساعات تقع قرية (حمراء) ، وهى أيضًا ذات مياه جارية وأشجار يانعة متعددة . وتنتج هذه القرية أجود أنواع الحناء وزيت البلسان الذى يتكالب عليه الحجاج والمسافرون عند المرور بها .

وأكثر القوافل المسافرة من صفر لا تتوقف فى الحمراء ، بل تواصل سيرها إلى الموقع الموجودة فى مدخل (جديدة) الضيق والمسمى (الحوبه جية) . والمسافة بين هذين المنزلين ست ساعات . وتوجد المياه الجارية فى موقع الاستراحة .

وتصل الرحلة بعد (الحوبه جية) إلى (بئر عباس) . ويقع بئر عباس على بعد خمس ساعات من المدينة المنورة من جهة (الحوبة جية) ، وعند التوجه إلى هذه المرحلة تمر القوافل من ممر (جديدة) . وتوجد قريتان صغيرتان بين هذين المنزلين .

والقوافل المسافرة من بئر عباس تصل إلي (بئر الشربوفى) بعد اثنتى عشرة ساعة ، وهنالك أيضًا بئر مياهه عذبة حلوة.

وبعد التحرك من (بئر الشربوفى) بأربع ساعات ، تصل القوافل إلي موقع (شهدا) ، وهناك أيضًا بئر مياهه عذبة مستساغة .

وبين هذا الموقع والمدينة المنورة أربع عشرة ساعة ، وأهالى المدينة المنورة الكرام يستقبلون .

زوار مكة المكرمة وحجاجيها القادمين لزيارة المدينة المنورة فى البستان المسمى (بيار على) الواقع على بعد ساعتين من جهة مكة المكرمة .

وليس من المعتاد توقف المارة من هذه الطرق فى هذه المنازل والبقاء بها ، إنما الأمر حسب رغبة الجمالين الذين يودون التوقف فى كل مرحلة بها آبار للتزود بالمياه . ولا يتوقفون فى الاستراحات التى ليست بها مياه . وعلى أى حال فإن دخول المدينة المنورة فى اليوم السادس من القيام من رابغ يعتبر من العادات القديمة التى تعودت عليها القوافل .

والطريق المذكور قديم بالنسبة للمحامل الشريفة وقوافل الحجاج ، وبالرغم من قلة مياهه ، إلا أن منازله ومطالعه شبه معدومة ، أما الطريق المذكور آنفًا فتوجد عليه سلاسل الجبال التي تحيط بجانبيه حتى مرحلة (بئر عباس) . ولما كان الطريق يمر ببعض الممرات الضيقة فى أكثر مراحله ، فإن هذا يشجع البعض من عربان قبائل (بنى حرب) على السيطرة عليه من حين لآخر والسطو على أموال القوافل المترددة . وربما وصل الأمر فى بعض الأحيان إلى القتل والسلب معًا مما يدفع قوافل الحجاج المسلمين ومواكب الزوار وسائر المسافرين إلى أن يسلكوا الطرق المسماة بـ (الفرع وغابر) والتى كان قد افتتحها حضرة السلطان منذ بضع سنين خلت بسبب عمرانها وعدم خطورتها . (المترجم)

المنوره ، وقبة المسجد النبوى ، الشريف . وكانت صحراء المدينة المنورة تُضاء من حين لآخر بومضات نورانية مباركة . وما أن رأى الجمع ذلك ، حتى ولّوا وجوههم شطر المدينة ، سواء أكانوا راجلين ، أو ممتطين صهوة دوابهم ، وأخذوا يرددون « الصلاة والسلام عليك يا رسول الله » . والطريف أنه ما أن رأى الحجيج قبة المسجد النبوى – على ساكنه أفضل الصلاة والسلام – من أعلى ، وما أن بدأوا جميعًا فى التهليل ، والتكبير ، والدعاء حتى بدأت البعير فى البَعْبَعة ، والهدير ، والخيول فى الصهيل ، والبغال ، والحمير فى النهيق ، حتى أنه لم يعد بالإمكان السيطرة عليها بسهولة ، بعد ما كانت فيه من الإنهاك ، والتعب ، فأخذت تُسرع الخطى ، بل وتُهرول نحو المدينة . وقد بدأ بعض الحجاج يُحرمون من هذا الموقع .

أطـوار أهـل المديـنة :

ماأن تراءت المدينة المنورة ، حتى تحولت الصحراء إلى خضم بشرى ، ومحيط آدمى ، وهب جميع سكان المدينة المنورة ، الطاهرة ؛ من رجال ، ونساء ، وذكور ، وإناث ، كبير ، وصغير ، إلى إستقبال الموكب والترحيب به ، وكان الأطفال يقدمون أكياس التمور ، إلى الحجاج ، وهم يرحبون قائلين « حمداً لله على السلامة ياحاج .. زيارة مقبولة .. وحج مبرور » وكان الحجاج يردون عليهم شاكرين لهم قائلين « شكراً لله .. لقد قَدمنا إلى آعتاب سيدنا ، ونبينا ، الذى هو رحمة للعالمين » .

أما الفتيات ؛ فقد كن ينشدن الآغانى ، والقصائد ، والأناشيد الدينية ، وهن فى صحبة الحجاج ، حتى الدخول إلى أبواب المدينة نفسها ، وقد استغرقت هذه الرحلة خمس ساعات .

إطـراء جند صـارى حـسين باشـا :

لقد دخلت كتيبة حسين باشا ، إلى المدينة ، تحف بها أطياف الجلال ، والفخار ، مرفوعة الهامة ، ناصعة الجبين ، وأضحت ملحمة على كل لسان ، حيث لم يسبق لمن سبقوه مثل ؛ سنان باشا [1] ورضوان باشا [2] ، وطاوشان سليمان باشا [3] ، أن

---

(١) سنان باشا ؛ ورضوان باشا ، وطاوشان سليمان باشا : من قواد قافلة الحج السابقين على هذه السنة التى حج فيها آوليا ، ولم يتمكنوا من اخماد عصيان البدو ، والاعراب ، (المترجم) =

كان فى معيتهم جند مختارون أمثال هؤلاء عند دخولهم المدينة . لقد خرج كل الأهلين ، مصطفين على جنبات الطرق ، والشوارع لإستقبالهم ، والحفاوة بهم ؛ فنُحرت الآضاحى ، أما سيدات المدينة ، اللائى قد إصطففن فى النوافذ ، وقد إرتدين الفساتين الحريرية ، ما أن رأين موكب الباشا ، حتى أطلقن زغاريدهن ، التى صدح بها المكان ، واهتزت الأرض تحت أقدام الموكب .

وكان الباشا هو الآخر ، قد بدا فى أبهى صورة ؛ حيث تَدثر بفراء السمور ، الثمين، ووضع على رأسه ؛ العمامة السليمية [1] ، ومن حوله شطاره [2] ؛ وقد إرتدوا ملابسهم العسكرية ، وخوذاتهم المذَهبة ، ومن وراءهم محفل مهيب ؛ من الفرسان ، وموسيقات الجيش الهمايونى ، المكون من ثمان أطقم ، يدقون طبولهم ، ويعزفون موسيقاهم ، التى تعبق المكان بالحماس الدينى ، والروحانى الجميل . وسار الموكب حتى استقر الباشا فى أوطاقه [3] .

= ولم يتمكن سنان باشا من التصدى لهجمات البدو والآعراب فى بوادى أرض الحجاز ، وطرق القوافل مما أدى إلى عزلة فى السنوات التالية .

(٢) رضوان باشا : واحد من القادة العسكريين ، والولاة الذين قادوا قافلة الحج قبل سنة ١٠٨١هـ ، ولكن لم يحالفهم التوفيق مما أدى إلى عزله .

(٣) طاوشان سليمان باشا :كان واحد من الولاة ، والقادة ، تم تكليفه بقيادة القافلة التى تصاحب موكب الحج ، لم ينجح من صد هجمات البدو، فتم عزله .

(١) **العمامة السليمية** : غطاء رأس يُنسب إلي السلطان سليم الأول العثمانى ، وتسمى « سيليمى » وتصنع من أجود أنواع الأقمشة ، ويصل طولها إلى ٦٥سم ، وآعلاها أكثر اتساعًا ومستويًا ، ويعلق عليها شريط من التل . وكان يرتديها السلاطين ، وقوات الانكشارية) « المترجم »

(٢) **الشطار** : جمع « شاطر » Sâtir مصطلح يطلق على بعض من القوات التى تكون فى معية السلطان ، ويكلفون ببعض المهام المهمة ، ويسيرون حول السلطان فى كوكبة ظريفة لإضفاء البهجة ، والمهابة على موكب السلطان . وكان منهم من يكون فى خدمة الصدر الأعظم ، أو الوزراء . ويعتبرون من تشكيلات السراى . ويدخلون ضمن قوات البيادة أى المشاة . وكانت لهم معسكراتهم الخاصة بهم ، وكانت قد الغيت ولكن فى محرم ١٠٧٧ هـ = يوليو سنة ١٦٦٦م أعيد تكوينها . وكان رئيسهم يسمى « شاطرباشى » . ولهم كتخدا أى معتمد ، ملابسهم مزركشة ، وأحزمتهم مرصعة . وكان السلطان محمد الرابع يتوجه إلى صلاة الجمعة وسط كوكبة منهم فى كل أسبوع . وكانوا يضعون على رؤوسهم تيجان تُشبه الكوكب المرصع بالذهب . وفى آياديهم اسلحتهم التي تُشبه البُلط .

كان الصدر الاعظم ، والوزراء يستخدمونهم لفرض الهدوء والسكينة بين الآهالى ، وكانوا يقومون بما يُشبه اعمال قوات الضبطية .

كما كان يستخدمهم بعض رجالات الدولة ، والوجهاء كنوع من المظهرية .. بحيث يسيرون عن يمينه وعن يساره وهم فى كامل أبهتهم . « المترجم »

(٣) **الأوطاق** : اوطاغ مصطلح فنى يُطلق على نوع من الخيام المخصصة للسلطان والصدر الاعظم ، والوزراء ، وكبار =

وحينئذ أطلقت مدفعية قلعة المدينة مابين سبعين ، أو ثمانين طلقة ، وكان هذا إيذان بدخول المدينه .

وما أن استقرت القافلة ، فى مكانها ، حتى هيئت نفسى ، أنا العبد الحقير . للقيام بالزيارات اللازمة ؛ فأخذت لنفسى مرشداً ، وأحد العبيد ، وتوجهت إلى مقامات الزيارة .

مقامات الزيارة خارج المدينة :

على طريق الشام ؛ وعند مدخل المدينة المنورة ، تقع حديقة وبستان سيدنا عثمان رضي الله عنه ، وكان موقعها على يمين الشارع ، وهى عبارة عن بستان فسيح ، مزدان بشتى أنواع الأشجار المثمرة ، رياضه مزهرة وآباره عذبة المياه ، وبالقرب من الحديقة يقع جامع « ذى القبلتين » إحداهما ناحية الكعبة ، والثانية متجة نحو القدس حيث المسجد الأقصى ، وحيث نزلت آية ﴿ **ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ** (٢٩) ﴾ (*) فى حقها .

ففى السنة الرابعة عشر للهجرة النبوية ، وبينماكان النبى ﷺ يصلى فى أحد المساجد ، نزل عليه جبريل الأمين « عليه السلام » وأوحى إليه ﷺ بالآية الكريمة ﴿ **فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ..** ﴾ (**) ، فاتجه المسلمون جميعًا منذ ذلك الحين فى صلاتهم نحو الكعبة المشرفة ومما لا شك فيه ؛ أن كل من يُصلى هنالك ،

= القادة . وكانت خيمة السلطان تسمى « اوطاغى همايون » ، أما خيمة الصدر الأعظم فكانوا يطلقون عليها « اوطاغى آصفى » . ويختلف الأوطاق عن الخيمة العادية بزخارفه ، وكبره ، واتساعه ، والكرانيش التى تطوقه . وقد نصب السلطان سليم الأول عند دخوله مصر اوطاغه فى منيل الروضة ١٥١٧ م = ٩٢٣ هـ .

كما كان يُقام اوطاغ = اوطاق قائد أو أمير الحج كلما دعت الحاجه والاستراحة ، أو استقبال رجالات القافلة ، وأهل الحرمين

وكان الأوطاغ الهمايونى غاية فى الزينة ، والزخرفة ولونه أحمراً فى العادة . ولا يسمح للوزراء ، والأمراء ، واولياء العهد باستخدام اوطاقات بنفس هذا اللون .

كان الاوطاق السلطان يُنصب فى العادة وسط المروج والرياض .. وفى وقت الحرب ؛ فيقام وسط معسكرات الانكشارية وخيامهم تُحيط بخيمة السلطان من كل جانب ، وكانت هى بمثابة خيمة القيادة المركزية . وفى الغالب كانت تُصنع من خيوط القطن . وخاصة القسم الداخلى .. أما القسم الخارجى فكان معالجًا ضد الأمطار ، والحرارة الشديدة . « المترجم »

(*) آية تغيير القبلة ... سورة الحج آية ٢٩ .

(**) سورة البقرة آية ١٤٤ .

ركعتين، خاشعًا لله ؛ فإنه يدخل الجنة ، بدون عذاب ، أوحساب . ولقد كانت إحدى الغزوات الثمانى والعشرين التى غزاها الرسول الكريم « ﷺ » [1] ضد المشركين قد دارت رحاها فى هذا الموقع ، وبالقرب من القبلتين ؛ ألا وهى غزوة الخندق، . وبنفس هذا الموقع أربعة مساجد ؛ أحدهم هو مسجد « سَلْمَان الفارسى » ومسجد « سيدنا عثمان » ومسجد « سيدنا على » . . .

أما الجماعات التى بقيت فى حدائق المدينة فهى قليلة ، وفى جنوب هذه المساجد السابقة يوجد جبل صغير ؛ كان الرسول الكريم « ﷺ » يتعبد فيه ، ويوجد حيث يوجد مقام الرسول الكريم . ويقع جبل عسير ، أى « جبل جهنم » بالقرب من هذا الجبل ، وفى ضواحيه الأربع توجد الحدائق والرياض ، ولكن هذا الجبل أملس ،

---

(١) غزوات الرسول ﷺ الثمانى والعشرين :

إن معركة بدر (١) كانت أول لقاء مسلح بين المسلمين بقيادة الرسول (ﷺ) والمشركين ، وكانت معركة فاصلة اكسبت المسلمين نصراً حاسماً شهد له العرب قاطبة . وكانت هى بداية النشاط العسكرى الإسلامى ، (٢) ثم كانت غزوة بنى سليم بالكدر ، (٣) ثم غزوة بنى قينقاع بعد أن نقض اليهود العهد فى اتفاقهم مع الرسول (ﷺ) ، (٤) غزوة السويق التى طارد فيها النبى أبا سفيان وأصحابه ، (٥) وغزوة ذى أمر ، وهى أكبر حملة ، عسكرية قادها الرسول قبل أُحد وكانت فى المحرم سنة ٣ هـ . (٦) غزوة بحران ، قادها الرسول (ﷺ) فى شهر ربيع من نفس السنة ، ثم كانت . (٧) غزوة أحد بالقرب من المدينة المنورة ، وقد شاركت فيها نسوة قريش فى تحميس المقاتلين ، وفيها استشهد أسد الله حمزة بن عبد المطلب ، ونزلت الهزيمة بالمشركين ، ولولا غلطة الرماة لما تبدد المسلمون فى الموقف ، وعندما احتدم القتال حول الرسول (ﷺ) والتفاف الصحابة وتجمعهم حوله (ﷺ) . واشتد الوطيس فيها ، كما استشهد فيها سبعون من المسلمين . (٨) غزوة حمراء الأسد . (٩) ثم غزوة بنى النضير ، (١٠) وغزوة نجد (١١) وغزوة دومة الجندل ، (١٢) ثم غزوة الأحزاب ؛ التى كانت معركة أعصاب ، لم يجر فيها قتال مرير ، إلا أنها من أحسم المعارك فى تاريخ الإسلام ١٣٠ - ثم كانت غزوة بنى قريظة . ثم أعقبها بعض البعوث والثرايا ، ثم غزوة بنى لحيان ، ثم غزوة بنى المصطلق أو غزوة المريع فى شهر شعبان سنة ٦ هـ ، وفى ذى القعدة سنة ٦ وقعت وقعة الحديبية ، وأعقبها هدنة الحديبية التى تُعتبر بداية طور جديد في المعارك العسكرية الإسلامية ، فقد بدأت المكاتبات إلى الملوك والأمراء .

وبعد صلح الحديبية كانت غزوة الغابة أو غزوة ذى قرد ، وغزوة خيبر ووادى القرى فى المحرم سنة ٧ هـ . ثم غزوة ذات الرقاع والتى أعقبها بعض السرايا ، وتم عقبها عمرة القضاء . ثم معركة مؤته ، وهى أكبر معركة دامية خاضها المسلمون فى حياة الرسول (ﷺ) فى جمادى الأولى سنة ٨هـ اغسطس / سبتمبر سنة ٦٢٩م . وكانت بين المسلمين والرومان . واعقبها السرايا كسرية ذات السلاسل ، وسرية أبي قتادة إلى خضرة .

ثم كانت غزوة مكة التى أعز الله بها دينه ، ورسوله ، وجنده وحزبه الأمين . ثم جاءت غزوة حنين واستخدم فيها سلاح الاستكشاف على أحسن وجه .

عاد الرسول إلى المدينة بعد الفتح المبين . وما أن استهل هلال المحرم سنة ٩هـ حتى بعث عليه السلام بالرسل إلى المصدقية به ، ثم تتابعت السرايا ، وكانت غزوة تبوك فى رجب سنة ٩ هـ وقد نزل فى حقها الكثير من الآيات المباركات . انظر : (الرحيق المختوم ، صفر الدين المباركفورى ، دار ابن خلدون ١٧٦) المترجم.

أجدب لاثمر فيه ، وقد دعى عليه الرسول الكريم ﷺ لذلك ؛ هو جبل أسود ، مظلم ، لا نور فيه ، ولا زرع . أما حدائق تلك الديار فغزيرة المياه ، وفيرة الثمار ، متعددة الأنواع ؛ فمن الليمون ، واللارنج ، إلى الفواكه الأخرى الفّواحة .

هناك بستان آخر ؛ يقع على طريق الحجاج ، كثيرًا ما تَرْتَدْنَه سيدات المدينة الطاهرات ، العفيفات ، لمشاهدة مواكب الحجاج . وقد طفت ، وتجولت فيه أنا العبد الفقير ، للوقوف على كل مابه من بساتين ورياض .

وبعدها اغتسلت فى حمام عام ، حتى اتخلص من عناء الطريق ، ومشقته ، وعدت إلى خيمتى ، وغيرت ملابس الطريق ، وأحرمت ، ثم خرجت من الخيمة ، متجهًا نحو قلعة المدينة ، من باب مصر ، وأنا أردد الدعاء العظيم « ربى أدخلنى مدخل صدق .. وأخرجنى مخرج صدق . . » ثم دلفت إلى المسجد النبوى من باب السلام ، ثم بدأت أزحف ، وسط الحشد الغفير ، حتى وصلت إلى المقصورة النبوية فلثمتها ، ثم ركعت على ركبتى محييًا ، « السلام عليك يا رسول الله » ، وقد استغرقت فى إبتهالاتى ، وما أن عدت إلى نفسى ، أو عادت إلىّ نفسى ، حتى حاولت أن أشق طريقى ، وسط هذا الزحام المحبب إلى النفس . وعدت إلى خيمتى . وقد أعلن جاويشية الكتيبة عن البقاء يومين فى المدينة .

* * *